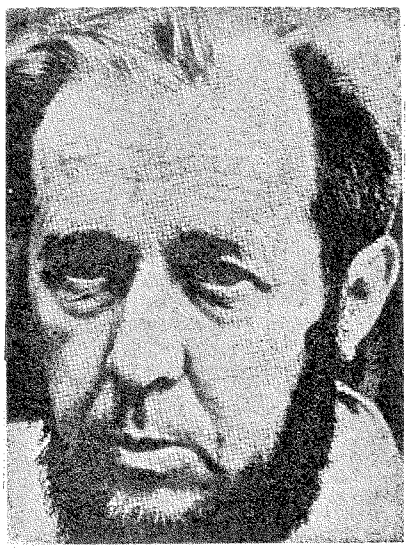

شفيق مقار

سولجنتسين : « وبعدنا الطوفان »

« واذ هم وقوف ، يوشكون ان يرفعوا قدما فيضعوها على اول الدرج الصاعد الى عنان السماء ، تدهمهم ريح صرصر معاكسة من كلا الشاطئين فتطوح بهم على بعد عشرة الاف فرسخ تائهة ، في فضاء مخادع لئيم .. »
(جون ميلتون :
« الفردوس المفقود »)

لهيب الايمان :

يخطىء من يتصور ان سولجنتسين غربي ، او ممالىء لفكرالغرب، او داعية لموقف من مواقف الغربيين ، او معجب بطريقة حياتهم . فهو ــ على العكس ــ من سلالة الروس القدامى المتعصبين لروسيتهم في وجه كل ما هو آت من وراء الحدود ، وهو داعية عزلة روسية محكمة (لا ندري كيف يتصور انها ممكنة) في السياسة ، والعقيدة ، والعسكرية ، وطريقة الحياة ، والاقتصاد . وخلافه مع من يديرون المجتمع في بلاده ليس انحيازا لاحد خارج الحدود الروسية، وليس لحساب احد ، مهما طبلت له صحف الغرب ــ لمآربها الخاصة ــ وزمرت ، بل هو خلاف مع ما يجده ، ببساطة ، محبطا لامال شعبه ــ او ما يرى هو انه ينبغي ان تكون عليه امال شعبه ــ في حياة افضل : انسانيا ، لا تكنولوجيا .. وهو ــ فوق كل شيء ــ خلاف مع ما يدعوه « بالاكذوبة » .

ولكن ما الاكذوبة ، في هذا المدار ، وما الصدق ؟ ان لينين ــ هو الاخر ، وبايمان لا يقل حرارة عن ايمان سولجنتسين ــ يقول « ان تعاليم ماركس تتصف بكل ما تتصف به من قوة لا تغلب لانها صادقة .. » وما عداها كذب .

والحقيقة ان ضراوة الصدام بين سولجنتسين والنظام السوفياتي راجعة ــ من وجه بعينه ــ الى ان ذلك صدام بين موقفين ايمانيين »» بالمعنى الديني للكلمة . وذلك ، فيما تنبىء عنه احداث التاريخ وعبره ، افظع انواع الصدام . ففي مواجهة المادية الجدلية ، التي لم تعد واقفة على ارض نظرية او تاملية ،بل على ارض الواقع الراسخ ، ولم تعد مستندة بظهرها الى « قداسة » فكر ماركس ولينين فحسب ، بل والى جدار صلد من التحقق والانجاز وضروب النجاح الحية الملموسة التي لا تجحد ، يقف سولجنتسين ، على ارض مجموعة من القيم « المثالية » ، شاهرا سيف الايمان المسيحي العتيد، مستندا بظهره . .الى اي شيء ؟ الى انكار لجدوى كل ما حققته الماركسية من نجاحات ، ورفض لطريقة الحياة التي اوجدتها تلك الماركسية .

ولئلا نخطىء فهم ابعاد ذلك الصدام فنتصوره (بعقلية لها ولع خاص بمثل هذه الارتماشات) صراعا بين رجل مؤمن ، يدعو الى الايمان ، واناس كفرة ، يدعون الى الالحاد والعياذ بالله .. لئلا نخطىء الفهم ، على مثل تلك الدرب المعتادة ، نذكر تشخيص نيتشه للعصر بانه « عصر موت الاله » ، العصر الذي ازاح فيه الانسان (انسان الثقافات التي تحدث عنها نيتشه) آلهته ، وتربع هو مكانها : الها على الارض ، ونذكر ايضا ما استعرضناه في المقال الاول من تعريف سولجنتسين للفن ، وتمييزه بين نوعين من الفنانين : الفنان الذي يخلق عالما روحيا مستقلا ويتقبل المسئولية عنه كاملة ، والفنان الذي يعمل كصبي تحت التمرين في « ورشة » الكون ، تحت ادارة الخالق .

فالصدام صدام بين رؤيتين متناقضتين تمام التناقض ، متضادتين كاشد ما يكون التضاد ، للعالم ودور الانسان فيه، وبالتالي لطريقة الحياة المثلى لذلك الانسان . وفي ذلك الوجه منبع خطورة الصراع واهميته ، لا بالنسبة للاتحاد السوفياتي ، ومثقفيه وكتابه فحسب ، بل وبالنسبة للثقافة الغربية او ، بالاحرى ،الثقافة الصناعية المتقدمة ،ككل ، لانه يطرح ــ على هذا المستوى ــ تلك القضية برمتها ، من جديد . ومتى ؟ في وقت تتاهب فيه تلك الثقافة لغزوالفضاء ودخول القرن الحادي والعشرين ، تاركة وراءها ، بلا رجعة ، اشياء عديدة من مخلفات الماضي وركام الحاضر التي بدا الغد وشيك المجيء يفقدها كل صلاحية ، باحثة عن بدائل لتلك المخلفات البائدة . وفي اعتقادنا ان الثورة على كونفوشيوس في الصين ليست مجرد نوبة من نوبات الثورة الثقافية في ذلك البلد العجيب ، او مجرد نقلة جانبية في لعبة السلطة هناك ، كما صورت ، بل هي تعبير عن ادراك واع مستنير ، سبقت الصين سائر البلدان التي ستبقى لتدخل القرن الحادي والعشرين وعصر الفضاء في المجاهرة به : ادراك لان انسان الغد وشيك المجيء الذي سيعمر الارض والفضاء في حاجة الى نسق فكري ، روحي واخلاقي ، جديد يتواءم ومتطلبات العصر الجديد ، نسق من قيم تتكامل حولها شخصيته ، فتصلب عوده وتشاد ازره في مواجهة الكون الذي سيغزوه ويتسيده ، وادراك لكون القديم الراهن من انسقة القيم (كالكونفوشيوسية) لم يعد فيه غناء ، ولم يعد قادرا على الوفاء بمتطلبات العصر الجديد .

ولهذا كان تساؤلنا : ما الاكذوبة ، وما الصدق ،في هذا المدار ؟ لكننا لسنا في معرض تحكيم بين سولجنتسين والنظام الذي يناطحه لنتبين من منهما المخطىء ، ومن المصيب . فذلك شيء سيتكفل به تاريخ الفكر عندما يتدبر احداث هذه الحقبة ووقائعها ، على ضوء ما سوف ياتي بعدها وما سيترتب عليها . ولقد اكتفينا ، فيما سبق ، وفيما يخص الصدام ، بعرض قضية سولجنتسين ككاتب

مضطهد ، محاولين ان نستجلي جوانب تلك القضية وملابساتهـا وابعادها . وفيما يخص اضطهاده ، ينبغي ان نذكر انه ليس في محاربة الفكر جديد . فمحاكم التفتيش باقية ، على الجانبين ، طالما تلظت الصدور بلهيب الايمان وتحجرت العقول والبصائر وراء الرضى عن النفس والدوجماتية المريحة التي تقنع هذه الفئة او تلك بانها على حق وغيرها على باطل ، وبانها تتكلم بالصدق ويتكلم غيرها بالاكاذيب . وحتى المجتمع الانجليزي الذي يغبط نفسه على ليبراليته وتقاليده الديموقراطية العريقة حارب كاتبا لا كبير ضر فيه كلورنس ، لمجرد ان الكاتب خالفه الرأي وخرج على مواضعاته ، فطارده ومنع كتبه حتى الستينيات من هذا القرن . حقيقة ان المجتمع الانجليزي لم يطرد لورنس كما طرد سولجنتسين من الاتحاد السوفياتي ، لكنه جعل حياة الكاتب في بلده جحيما لا يطاق ،وارغمه على التشرد في انحاء المعمورة ، كما ارغم الكثيرين من قبله ، الى ان مات . ومجتمع كالمجتمع الايرلندي ، لا هو ماركسي ولا هو فاشي، بل هو مجتمع منغمس في الهوس الديني الى قمة الرأس والى حد المذابح ، سود عيش كاتب عظيم كجيمس جويس ، واضطره الى العيش منفيا ، وطارده بكراهيته حتى مات . ومجتمع كالمجتمع الاميركي عالي الصوت ، الذي لا يكف عن الطنطنة بديموقراطيته وانفتاحه ، طارد كاتبا عظيما كهنري ميللر ومنع كتبه حتى اواخر الستينيات . ولانقول انه ما دامت تلك ـ فيما يبدو ـ هي القاعدة ، فلنسلم بمشروعيتها ولنسلم بحق الجميع في مطاردة الكتاب واضطهادهم . (فذلك حق لا يملكه مجتمع ، مهما كانت اعذاره . بل هو غباء وقصر نظر . لانه من الذي ينتصر في النهاية ؟ برغم كل جبروت وقهر ينتصر الكاتب وتبقى اعماله ، بينما تندثر النظم وتزول ، وتتغير المجتمعات . ويكون الكاتب ـ في معظم الامر ـ قد اسهم بكتاباته في اندثار تلك وتغير هذه . وكل ما يعود على النظم والمجتمعات من مطاردة الفكر واضطهاده انها تحرم انفسها من الاصغاء لفكر قد يكون سديدا ، وقد يقيها من التردي في مهاو خطيرة ، وفي الوقت ذاته تحكم على انفسها بان تظل عرضة لادانة التاريخ لها متى تبين ان الكاتب كان على حق وانها ركبت متن الشطط في مطاردة فكره) . اما الذي نريد قوله فهو انه من كان من المجتمعات والنظم المعاصرة بلا خطيئة في هذا المجال فليرجم الاتحاد السوفياتي باول حجر . والحادث ان كل تلك المجتمعات تنسى او تتناسى كتابها ومفكريها المطاردين المضطهدين وتمطر الاتحاد السوفياتي بوابل من الاحجار باعتبارها مجتمعات ديموقراطية لا تحدث فيها مثل هذه الاشياء .

والمشكلة ، كما قلنا ، ان الكاتب يرى الامور من وجهة نظر مناديا بعودة بريطانيا الى حياتها القديمة في رحاب الطبيعة قبل ان والازدهار الذي لا يتوقف للنظام الصناعي ، وما استتبعه ذلك من رخاء وسطوة للطبقات التي تدير المجتمع ، اختلف حول ذلك النظام «المعادي للطبيعة ونمو الذات الفردية على السواء » ، ووجه كل عبقريته الخلاقة الى مهاجمته هجوما لا مهادنة فيه ، والزراية بدعاته والمدافعين عنه ، مناديا بعودة بريطانيا الى حياتها القديمة في رحاب الطبيعة قبل ان يدنسها ويلوثها ذلك النظام الصناعي. والادهى من ذلك والامر ان لورنس وقع ، بحدس الفنان وبصيرته ، على موطن جوهري من مواطن الداء في المجتمعات الغربية الحديثة ، وصارح مجتمعه بانه مجتمع سائر الى الهلاك انسانيا وحضاريا ، في قبضة مكتسبات التقدم ووثن النجاح من جانب ، ونتيجة لافتقاره من جانب اخر ـ بعد انتهاء دور المسيحية تاريخيا وحضاريا وانسانيا ـ الى ديانة حية جديدة (تصلح لهذا الذي كان ينادي به من عودة الى الطبيعة) يتماسك حول نواتها الصلبة كيانه كمجتمع بشري كما تتماسك شخصيات افراده ككائنات انسانية .(ولو ان لورنس تطرف فذهب الى ابعد مما ذهب اليه الرومانسيون من قبله ، فنادى بالعودة الى الديانات البدائية القديمة بطقوسها وشعائرها الوحشية بعض الشيء ، ومعرفتها « النابعة من الدم » كبديل للمعرفة العقلانية او حتى « معرفة القلب» التي حاول الرومانسيون قبله ان يتمردوا بها على النسق العقلاني/ المنطقي الذي اقام عليه النظام الصناعي دعائمه). وبذا دخل الكاتب في صدام مواجهة مع « المؤسسة » ، وبذلت المؤسسة كل ما وسعها من جهد لمحقه والقضاء عليه . وقد فعل نفس الشيء جويس ، وفعله ميللر ، مثلما فعله كل كاتب متمرد مناوىء عبر تاريخ الفكر ،كل من زاويته الخاصة ، وبطريقته الخاصة .

وفي مقابل ذلك يرى من يديرون المجتمع ، الذين حدثنا عنهم خروشتشوف وقال انهم في هذا المجال « لا يكونون تقدميين بالمرة » ،ان الكاتب يقحم نفسه في مسائل لا شان له بها ، ويهرف حولها بما لا يعرف ، وان الامور يجب ان تسير وفقا لما يرونه هم ، وبذا يتخذون تجاه الكاتب (كما حدثنا خروشتشوف ايضا) « اجراءات تكون دائما مدمرة للغاية » ، فيحاربون كتاباته ، ويمشون فوقه ،وقد يقتلونه ،او يسجنونه ، او يحاولون شراءه ،او يجعلون حياته جحيما حتى يهرب، او يطردونه ، وذلك اضعف الايمان .

ورب قائل ان سولجنتسين كان مستطيعا ـ رغم ذلك كله ـ ان يظل في روسيا ويكتب ، فقط لو تحلى بشيء من اللباقة وحسن تدبير الامور . ربما ، ولو ان ذلك ليس سهلا ، وليس مأمونا في كل الاحوال ، خاصة متى كان الكاتب يقيم وزنا لشرفه وحريته ككاتب. فوق ان سولجنتسين كان مواجها ، في حالة اختياره البقاء ، بان يظل يصيح في خواء ، اذ تقبر مخطوطاته او تؤخذ ، او يصيح خارج الحدود . ولقد اختار الحل الاخير . فكل ما منع له من كتب داخل الاتحاد السوفياتي نشره في الغرب . ورغم ان الكاتب لم يكن له خيار في ذلك الا اذا اختار ان يستسلم ويمشي في الصف كما يقال ، فان السؤال الذي يفرض نفسه ـ وفي حالة سولجنتسين بالذات ـ هو: لمن ينشر سولجنتسين اعماله خارج حدود الاتحاد السوفياتي ؟ انه يعرف طبعا ان الروس والاوكرانيين لن يقرأوا تلك الاعمال بالفرنسية او الانجليزية او الالمانية او مهربة بالروسية بينما هم اصحاب المصلحة الاولى فيها . فمنذا الذي سيحكي لجماهير الشعب الروسي العريضة عن حياة السجناء من مواطنيهم وابنائهم في « ارخبيل المعتقلات » ؟ وما جدوى ان يقرأ تلك الاشياء الانجليز ، او الفرنسيون ، او الامريكان ، او الالمان ، وصحفهم تقول هذا كله وتعيد وتزيد فيه منذ اجيال ؟هل سولجنتسين سادر حقا في حملة شوشرة على الاتحاد السوفياتي وقذف في حقه ؟ هل هو يستعدي الغرب على بلاده ؟ وما جدوى ذلك الاستعداء والغرب يعرف كل ذلك من قديم ولا قيمة فيما ينشره سولجنتسين الان ـ بالنسبة للغرب ـ الا تعزيز ما قالته صحفه واجهزة اعلامه من قديم ؟ هل سيدخل الغربيون الاتحاد السوفياتي او يتدخلون في شئونه الداخلية ليفرجوا عن المعتقلين ويؤمنوا الحريات الشخصية بفضل ما ينشره سولجنتسين ؟ ام ترى الرجل يبحث عن الشهرة والثراء ؟

لا نظن . والذي نعتقده ان الرجل ، مؤمنا اعمق الايمان بما يقول ، محبا كل الحب لوطنه روسيا ، قد قرر ان يشتبك في صراع بقاء مع النظام الحاكم في بلاده ، مستخدما في ذلك السلاح الوحيد في يده : اعماله الادبية . ولا تعني مجرد عملية الكتابة والابداع،بل نعني استخدام نشر تلك الكتب في العالم سلاحا باترا وفعالا في ذلك الصراع الضاري مع النظام . وقد اثبتت الاحداث نجاح الكاتب في تكتيكه هذا .. حتى الان . فقد امن بالاقل حياته وحياة اسرته ،وبدلا من ان يعود الى المعتقل او يوضع في مستشفى للمجانين ، طرد ،فكان طرده كسبا له في معركته ، لانه اعتراف من النظام بخطر بقائه داخل الحدود ، ايا كانت الاسباب التي قيلت في تبرير طرده ، وتسليم بان

الكاتب يمكن ان يجعل من نفسه فعلا ـ كما قال سولجنتسين ـ حكومة منافسة .

ولقد يكون ذلك هو ما رمى اليه سولجنتسين من اختياره للمواجهة والصدام بالرأس مع النظام ـ في المرحلة التي سبقت طرده ـ وذهابه في ذلك الى اخر المدى ، وكأنه يصعد الصدام عمدا ، متعجلا الوصول الى نقطة الانفجار . والذي يبدو مما يكتبه سولجنتسين ويقوله انه ليس انتحاريا ، وليس من طلاب الاستشهاد ، بل انه ، وهو في المعتقل ، اخذ على نفسه عهدا بان يظل حيا وينجو ليروي القصة كاملة ويقول كل ما ينبغي ان يقال . ولقد قلنا من قبل انه لم يقدم على شيء مما اقدم عليه في مواجهة النظام الا بعد ان حسب حسبته جيدا، ورتب أموره ، بحيث يضمن ـ قدر الاستطاعة ـ ان تنتهي الامور الى ما انتهت اليه . لكن تلك المجازفة ـ مهما بدت محسوبة ـ لم تكن مأمونة العواقب ، ولم يكن سولجنتسين من الغفلة او الجنون فيما نظن بحيث يغيب عنه ان اي جديد غير متوقع وغير محسوب قد يجد فجاة فيقلب كل الحسابات ويجعل العاقبة وخيمة بحق . ومع ذلك لم يتردد لحظة . وهو ما قد يبرر الاعتقاد انه ـ فوق كل ما سبق ـ تقف وراء تصرفات الكاتب التي تبدو ، بأي معيار ، ممعنة في الجرأة ، مفرطة في التهور (لانه : بفرض انه بدلا من طرده قتل او اختفى ،ما الذي كان سيستطيعه العالم الخارجي ، في نهاية الامر ، من اجله، اللهم الا احداث ضجة ما تلبث ان تخفت وتضيع في زحمة الاحداث؟) نقول تقف وراء تصرفات الكاتب ازمة اخلاقية عميقة ، باقية ،ومؤثرة في النفس . فقبوله نشر « يوم في حياة ايفان دنيزوفيتش » لادانة عهد ستالين ، من تحت جناح خروشتشوف ، بدا كما لو كان مباركة من جانب الكاتب ، او موافقة اخلاقية ضمنية منه ، بالاقل ، على القول بان عهد الاخير افضل من عهد سابقه ، بينما منطلق الكاتب الاخلاق ، ككل ، بل مبرر وجوده ككاتب اصلا ، يقوم على مجموعة قيم وافكار ووجهات نظر تضعه موضع الضد من الاثنين معا ومن بعدهما على السواء . فسيرته ، كما يرويها مؤرخوه الذي ينكاثرون بشكل لافت للنظر في الغرب ، واهم منها ، روايته « الدائرة الاولى »، صريحة في الشهادة بانه ، ان لم يكن يعرف من مبدأ الامر ، فانه لم يظل جاهلا ، لامد طويل ، بحقيقة من اخذوه تحت جناحهم ونشروا له « ايفان دنيزوفيتش » ، ابتداء من خروشتشوف ، الى تفاردوفسكي، وانه لم يكن من السذاجة والغفلة بحيث يغيب عنه ماضيهم الستاليني ، او يغيب عنه ان قدرا كبيرا مما ظل يستمتع به بعد نشر الرواية ، وبالرغم مما اثارته من اعاصير في اروقة السلطة ، من نجاح وشهرة جعلاه يسجل صلاته التالية للرب ،كان على حساب كثرة من الكتاب والمفكرين المنشقين الذين لم يسعدهم الحظ فيقع الاختيار على عمل من اعمالهم يستخدم في الحملة ضد ستالين :

« كم هو سهل عليّ ان اعيش معك ، ايها الرب الاله ! كم هو سهل على ان اؤمن بك .. على هذا المرتفع من الشهرة المبكرة انظر متعجبا الى الطريق التي لم اكن لاستطيع ان افطن الى وجودها لو كنت وحدي .. تلك الطريق العجيبة عبر مخاضات اليأس الى هذا المرتفع الذي بات بوسعي ان اشع من فوقها ، انا ايضا ، انعكاسا لضيائك ، بين البشر . ولسوف تجعلني يا رب قادرا على ان اظل اعكس ضياءك طالما كانت تلك مشيئتك .. اما ذلك الذي قد لا استطيع ان اتمه فسوف يكون ما تتجه مشيئتك يا رب الى ان تجعله من قسمة اخرين غيري » .(1)

فبينما سولجنتسين على مرتفعه ذاك ، مسبحا بحمد الرب ، متعجبا من درب النجاح والشهرة التي اوصلته اليه ليعكس نور الرب من فوقه ، كان من دفعوه الى تلك الدرب ـ لمآربهم الخاصة ـ واجلسوه على ذلك المرتفع ، يحتفظون به على مرتفعه رغم ما كان ذلك يسببه لهم من متاعب وصداع ، لان بقاءه على ذلك المرتفع ، في دائرة الضوء ،كان بالنسبة اليهم دليلا مريحا على البعد عن مكان الجريمة بينما هم ينكلون بالعشرات والمئات من المفكرين والكتاب متسترين وراء اسطورة « ايفان دنيزوفيتش » ، لانه ان كان النظام ، في عهده الجديدالطيب، بعد ان انقضى عهد ستالين الشرير ، قد بات من سعة الصدر والحرص على سيادة القانون بحيث امكنه ان يتقبل بصدر رحب نقدا كالذي تضمنته رواية سولجنتسين الاولى،فاي نقد مشروع صادق النية ذاك الذي لا يمكن ان يتقبله ؟ وبالتالي فان اي خلاف في الرأي او نقد يرفض بعد ذلك ويحارب اصحابه « حرصا على القانون والنظام » لا بد ان يكون مخربا او هداما . وهكذا فانه بفضل تعاون سولجنتسين ـ بحسن نية ولمجرد الرغبة في اغتنام فرصة اتيحت له ليوصل ما اراد قوله الى الشعب الروسي ـ تمكن النظام في عهد خروشتشوف، بالكلبية المعهودة المتكررة ، ان يضع على وجهه قناعا مريحا ومفيدا من ادعاء الانسانية والصدق والاعتدال والبعد عن العسف والالتزام بسيادة القانون .

وليس هناك من يمكن ان يتهم سولجنتسين بالتواطؤ في شيء كهذا ، او يحمله مسئولية استغلال النظام لرغبته المشروعة في نشر عمله وتوصيله الى الناس . ومع ذلك فان الكاتب قد تعرض ـ اذ اتضح كل ذلك امام عينيه ـ لازمة اخلاقية واحساس بالمسئولية ما من شك في انهما قد فعلا فعلهما في تكييف موقف الصلابة والصدام الذي لا مهادنة فيه تجاه النظام جنبا الى جنب مع مجازفته المحسوبة ، التي اشرنا اليها ، والتي استخدم فيها نشر اعماله في الغرب سلاحا فعالا في تحرك تكتيكي ضد النظام بغية الوصول الى ما عقد العزم عليه من اقتحام كل دفاعات السلطة وقهر مقاومة اجهزتها المختلفة له ، والنفاذ الى الشعب الروسي ليقول له ما الى على نفسه ان يقوله لذلك الشعب الذي يحبه ويعيش من اجله ، ومن خلال ذلك محاولة فرض التغيير الذي يراه ضروريا لنجاة ذلك الشعب من المخاطر المتربصة به ، وسعادته ، واتاحة الفرصة له في حياة انسانية كريمة ، سوية ، وفاضلة ، محاولة فرض ذلك التغيير ،على هذا المستوى الهائل (كاتب بمفرده في مواجهة نظام باكمله) بقوة الفكر وحده . فسولجنتسين ، الذي اعتبر نفسه حكومة منافسة للحكومة القائمة في الاتحاد السوفياتي قد اختار ان يصعد الصراع ويحرك الاحداث بحيث يتحول الى شبه « حكومة في المنفى » لبلاده ، كمرحلة في خطة « الغزو الفكري » التي يقوم بتنفيذها ضد النظام .وان وجدت ذلك التشبيه من قبيل المبالغة فالق بسمعك الى تصريحات سولجنتسين التي تخاطفتها صحف الغرب وطيرتها وكالات الانباء عشية سفر الرئيس الاميركي نيكسون الى موسكو للاجتماع على مستوى القمة هناك بالقادة السوفيت . ففي حديث تليفزيوني طويل (ساعة كاملة) اجرته معه شركة كولومبيا الاميركية واجراه مراسلها « والتر كرونكايت » (2) ، عبر سولجنتسين عن تشككه في اية قيمة قد تكون لزيارة نيكسون للاتحاد السوفياتي بل وفي قيمة سياسة الوفاق باكملها، وقال :« لم يحدث من قبل ان بلغ تفوق الاتحاد السوفياتي وبلدان حلف وارسو الذروة التي بلغها الان على بلدان حلف الاطلنطي . ولم يحدث من قبل ان احتكم الاتحاد السوفياتي وبلدان اوروبا الشرقية في مثل هذا الكم الهائل من المعدات المتطورة .. كما لم يحدث من قبل ان كان رئيس الولايات المتحدة الاميركية في مثل هذا الموقف الضعيف الذي يجد نيكسون نفسه فيه الان . ان رئيسكم ليس من القوة بحيث يستطيع

(1) David Bargand George Feifer : « Solzhenitsyn », Sphere Books , London , 1973 , p . 231

(٢) ارجع للصحف البريطانية الصادرة صباح٢٥ يونيو ١٩٧٤.

ان يصر على تنفيذ المعاهدات الدولية التنفيذ الواجب » . فكانه رئيس حكومة في المنفى يتحدث الى العالم .

وعندما سئل سولجنتسين عما اذا كان يخشى على حياته الان وهو يعيش في سويسرا ، اجاب : « كلا . ولا تنس اني لو كنت اخشى على سلامتي الشخصية لما كنت قد جرؤت على نشر « ارخبيل المعتقلات» وانا ما زلت بالاتحاد السوفياتي : « لقد نشرت الكتاب في الغرب وانا مدرك تماما لما سوف يترتب على نشره بالنسبة الي : اما الموت امام طابور الاعدام ، او الموت في المعتقل » . لكنه ما لبث ان وجه شكرا حارا للصحافة الغربية والراي العام الغربي قائلا انهما حققا انتصارا كبيرا ، بالتحالفات مع المنشقين الروس » باخراجه مطرودا من الاتحاد السوفياتي .

الفن المنقذ ، والدين المخلص

لا ينقطع حديث سولجنتسين عن الحرية ، والعدل ، والحقيقة ، والجمال ، والخير ، وحق البشر في ان يعيشوا حياتهم متحررين من الخوف والقبح والشر والظلم .

وفي خطبة جائزة نوبل يقول ، مخاطبا كتاب العالم ومفكريه :

« (واني) مؤمن ، يا اصدقائي، باننا قادرون على مساعدة العالم في ساعة محنته هذه . ولا ينبغي لنا ان نبحث عن المعاذير (للهرب من تلك المسئولية) مدعين اننا نفتقر الى الاسلحة . ولا ينبغي لنا ان نستسلم لحياة الرخاء والدعة ، بل يجب ان نخوض المعركة ».(٣)

وهذا عظيم . لكن القضية ـ كما قلنا قبلا ـ لا تنجز . فالفنان لا يستطيع ـ اخلاقيا ـ ان ينصب نفسه منافحا عن الحق والعدل والخير والطمانينة لبعض البشر ويسقط السواد الاعظم (اكثر من ثلثي سكان العالم ، من حسابه ، لمجرد ان الوانهم او عقائدهم تختلف عن لونه وعقيدته ، وثقافاتهم ليست متقدمة كثقافته التكنولوجية المتطورة ، بل وان يتخذ موقفا يجعل دفاعه عن الحق والعدل لذلك البعض على حساب السواد الاعظم الاسود والاسمر والاحمر . فضمير الفنان ـ كالصدق تماما ـ لا ينقسم ولا يتجزأ ولا يخترع لنفسه المبررات والمعاذير التي تتيح له ان يلوذ مرتاحا بانحيازات وضروب اقليمية او قومية او محلية من الولاء في مجال القيم . فهو اما مؤمن بان الناس ، كل الناس ، كبشر ، لهم الحق في ان تقوم حياتهم على تلك القيم ، او ليس مؤمنا بان قيمه هذه ليست من حق كل البشر .ولقد قلنا ان دعاوي الهتلرية ، التي اخذها العنصريون الجدد فطوروها وحوروها وجعلوها سندا فكريا ودعامة « اخلاقية » لما يرتكب كل يوم تحت سمع سولجنتسين وبصره من جرائم بشعة في حق الشعوب التي يدعو سولجنتسين ، وهو متربع على مرتفعه الذي بات الان قمة، مشعا بنور الرب ، متوقدا بلهيب الايمان ، الى « تركها لمصيرها »، تلك الدعاوي المهلكة كان نبعها الاول المسموم شوفينيا هي الاخرى، كدعاوي سولجنتسين الخيرة النبيلة سواء بسواء .

ولا ندعي ان الرجل نازي ، او فاشي ، او عنصري ، وان لم يخل من كلبية غربية خطرة تقوم على التعامل مع الواقع بمعيارين من القيم، ولا تقل خطرا ـ لذلك ـ عن النازية والعنصرية المفضوحة ، بل ويمكن ان تنقلب اليهما بسهولة فائقة .. بمجرد دفعة صغيرة ، من هذا الجانب او ذاك . لكننا نقول ان رؤية سولجنتسين « المثالية » لبلاده، وخطة التغيير التي وضعها (بوصفه حكومة منافسة) للاتحاد السوفياتي ، والعالم معه بطبيعة الحال ، والتي من اجل وضعها موضع التنفيذ دخل في صراعه المدوي مع النظام السوفياتي واوصل الامور عامدا الى نقطة الانفجار التي بات بعدها اشبه « بحكومة في المنفى » ، رؤية مليئة بالثقوب والثغرات ، وان تلك الثقوب والثغرات هي بالذات ما افضى به ـ كفنان ـ الى المزالق الخطرة المعيبة انسانيا واخلاقيا التي انساق اليها وتورط فيها بغير خجل .

والذي يعنينا في هذا المقال (قبل ان ناخذ في دراسة نقدية لاعمال الكاتب الابداعية) ان نناقش سولجنتسين ، من واقع منطلقاته الاخلاقية ذاتها ، في تلك المهاوي والثقوب والثغرات ، بعد ان قلنا ما له وما عليه ، واستعرضنا موقفه من السلطة وموقف السلطة في بلاده منه ومن ادبه عبر مراحل ثلاث : مرحلة ستالين ، مرحلة خروشتشوف ، ومرحلة ما بعد خروشتشوف التي لم تكتمل حلقاتها بعد ، بل والتي نعتقد انها لم تكد تبدا ، وان كل ما سبقها كان مجرد تمهيد لبدايتها هذه : النظام ، في الداخل ، رغم كل سطوته وقوته ، محاصرا بالفكر المعارض المنشق ، وحكومة سولجنتسين المنافسة في المنفى ، خارجا ، تضرب بكل ما عندها ، ووراء ظهرها راي عام « عالمي » غربي يسعده بالاقل ان يرى النظام السوفياتي في هذا المازق.

* * *

يرى سولجنتسين ، كما اسلفنا ، ان عالمنا بات في حالة مؤسية وخطرة ، ويرى ايضا ان الفن ، وخاصة الادب ، هو القادر على التغلب على سبب جوهري من الاسباب التي ادت الى تلك الحالة النكبائية : الا وهو ضعف الانسان المتمثل في كونه غير قادر على التعلم الا من خبراته المباشرة ، والتعامي او العمى عن خبرات غيره من البشر . فالفن يعيد خلق خبرات كل البشر ويوصلها الى كل انسان، حية نابضة ، ويقنعه بها حتى ياخذها اليه ويجعلها خبراته هو ايضا ، ويتعلم منها . فالفن ـ بذلك المعنى هو المجمع العظيم .فهل يعني سولجنتسين بهذا الكلام الجميل الذي يثلج الصدر ان الفن ـ اذ يقوم بذلك الدور ـ يكشف لنا عن تلك الحقيقة التي عبر عنها الشاعر ارشيبالد ماكليش في قصيدته المشهورة التي كتبها بمناسبة اطلاق ابوللو ٨ :

« ان رؤيتنا للارض كما هي حقيقة
تجعلنا نرى انفسنا كمسافرين على ظهر هذه الارض معا
اخوة كلنا على سطح ذلك الجمال المتالق
السابح في قلب الصقيع الابدي » ؟

في تنظيره للفن يقول سولجنتسين أن الفن قادر على تخطي عوائق اللغة ، والعرف ، والتقاليد ، والنظم الاجتماعية ، التي تفعل جميعا فعلها في وضع الحواجز بين الامم ، فيخلق روابط حية بين تلك الامم ، ويغني كل امة منها بخبرات غيرها ، تماما كما يفعل الفن على مستوى الافراد . فالفن منقذ للبشر جميعا .فهل يعني سولجنتسين البشر جميعا ؟

وفي ذلك الجزء من تنظيره ، الذي استعرضناه تفصيلا في المقال الاول ، يقول الكاتب ان الفن سينقذ العالم بالجمال . والجمال عنده يساوي الصدق . والصدق يعني الاعتراف بما في العالم من خير وانسجام . وبدا يكون الجمال المنقذ من خلال المعنى هو تمثل غرض الخالق في خليقته ، ويكون دور الفن هو الاقناع به :« فهناك تلك الخاصية في جوهر الجمال ، في موقف الفن ، وهي ان العمل الفني بحق مقنع ، اقناعا كاملا لا يدحض . وحتى القلب الجاحد الذي يقاومه ما يلبث ان يستسلم وينصاع له ..» (٤) والفن قادر على ان « يذيب حتى صقيع الروح التي تجمدت واظلمت ، ويفتحها للخبرات الروحية السامقة ونحن نتلقى احيانا ، عن طريق الفن ـ بغير جلاء ولفترات وجيزة ـ ضروبا من الوحي والانكشاف لا سبيل الى بلوغها بالتفكير العقلاني » . (٥) فالفن الذي يتحدث عنه

(٣) « خطبة نوبل .. » ص ٢٧ .

(٤) « خطبة نوبل » ص ٦ .

(٥) نفس المرجع ، ص ٥ .

سولجنتسين قد لا يكون واقعيا اشتراكيا ،وقد لا يكون ملتزما بالماركسية ، لكنه نضالي هو الاخر ، كاشد ما تكون النضالية ، وكل ما في الامر انه نضالي من موقف « لاهوتي » ضد : موقفالروحانية الغيبية . والمسالة ، ببساطة ،ان سولجنتسين يحاجي الماركسية ويدحضها بالمسيحية . وهو ـ اذ يفعل ذلك ـ مدرك انه يتخذ موقفه ـ كاهنا في معسكر لاهوتي ـ في مواجهة كهنة اخرين في معسكر لاهوتي مناوىء . وقد حدثنا سولجنتسين قبلا عنالحروب الاوروبية المتعاقبة التي اشعلت نيرانها الخلافات الايديولوجية « بما فيها ـ للاسف ـ الخلافات الدينية » (٦) ، واشار الى كتابسيرجي بولجاكوف « كارل ماركس كنمط ديني » (١٩٠٦)، قائلا ان ذلك الكتاب يكشف عن الحقيقة الماثلة في ان الالحاد هو المحور العاطفي ومصدر الالهام الرئيسي للماركسية ، وان بقية المذهب كله قد رقعت حول ذلك الاساس ترقيعا ، « فالعداء الضاري للدين هو السمة التي لا تتغير للماركسية » (٧) ، وبعد ذلك يقول :« اما انا ،شخصيا، فارى ان المسيحية ، اليوم ،هي القوة الروحية الحية الوحيدة القادرة على ان تاخذ على عاتقها مهمة شفاء روسيا » ،(٨) وهناك مواضع عديدة من اعماله الابداعية النثرية واشعاره ناضحة بحميا دينية تعيد الى الذهن ورع كتّاب كاليوت وجاك ماريتان . وسولجنتسين حر ـ بطبيعة الحال ـ في معتقداته وما يدعو اليه . وما من شك في انه على حق تماما في دعوته الى اطلاق حرية العقيدة في الاتحاد السوفياتي ، « انا لا اطلب معاملة مميزة خاصة للمسيحية . كل ما اطلبه لها ـ ببساطة ـ هو ان تعامل معاملة عادلة والا تطارد وتقمع » .(٩) فذلك مطلب من ابسط الحقوق الانسانية الاولية : ان يترك كل انسان حرا كي يجد لنفسه الخطأ والصواب ، بجهده الخاص ، في تلك المسالة .. ان استطاع .

ولكن ، ما دام ذلك ، فما خطب سولجنتسين ، المثقف العالمي العظيم ، الفنان ،المنافح عن حرية العقيدة ،وهو يطالعنا بذلك الوجه الترفضي القبيح الذي لا يدع فارقا بينه وبين اشد البدائيين المتعصبين بدائية وهو يقول بنبرة سخرية وكراهية غريبة :« دعوا العرب لمصيرهم .. فلديهم الاسلام » (١٠) ؟

والاسوا ان موقفه الترفضي ضيق الافق هذا الذي يمكن ان نجد له ، في الجهل والعقل المجدب المذعور ، عذرا لدى غيره ، يبدو مدخولا في حالة سولجنتسين بانحياز سياسي لا يكاد يخفيه الا بصعوبة .

ومع ذلك ، فسولجنتسين انسان مليء بالمتناقضات . فرغم ازدرائه للكتابة التي ترمي الى الدفاع عن افكار مسبقة ، او الاقناع بعقائد سياسية ، اجتماعية ،او فلسفية ،والبرهنة على صحتها، والترويج لها وقوله انه بينما ينبع الفن الحق من نبع واحد هو الصدق ، تنبني مثل تلك الكتابة على عرض من الانسجام الظاهري، والتماسك ، والاتساق ، رغم ما تكون قائمة عليه ، معبرة عنه،من اكاذيب واخطاء ، فتخدع الناس ، وتستولي على عقولهم ، ولا ينكشف امرها الا عندما تواجهها كتابة اخرى (نضالية مثلها) تناقضها، وتبدو متماسكة ، متسقة، مقنعة مثلها ، ولا تقل عنها خطلا وكذبا .. رغم ذلك كله ، فما من شك ، كما قلنا في المقال الاول ، في انه رغم ازدرائه « لفن القضية » ليس دون النضالية ، وليسارفع من ذلك النوع الذي يدينه من الكتابة ، متى اقتضت الحاجة . وكل ما في الامر انه ، على النقيض من النضاليين الملتزمين كتاب فن القضية الذين الفناهم من عالمه حتى الان ، يضع نضاليته والتزامه ضد القضية (الماركسية) في جانب قضية اخرى ، هي المسيحية .

وتلك ، على اية حال ، مشكلة تخصه . لكن الذي يظل مفتوحا للتساؤل وهو يتحدث عن ازمة الحضارة الغربية فيقول انها ازمة نفسية ، تاريخية ، واخلاقية ، قد تركت بصماتها على تلك الثقافة ككل (١١) ويقول انه من المحتمل جدا ، مع ذلك ، الا «تكون الحضارة الغربية هي التي ستموت » ، لانها حضارة ديناميكية وقادرة على الابتكار بحيث يمكنها ان تعبر سالمة بهذه الازمة الماحقة التي حلت بها ، وتحطم كل ما يكبلها ويخنقها من مفاهيم قديمة خاطئة مما يجعلها ، خلال بضعة سنوات ، قادرة على ان تاخذ فيالتعمير واعادة البناء (١٢) .. الذي يظل مفتوحا للتساؤل والكاتب يقول ذلك كله هو : هل يغفل سولجنتسين ام يتغافل عن الحقيقة التي تكاد تثقب العين والماثلة في ان فشل المسيحية كعقيدة تتكامل حولنواتها « شخصية » الحضارة الغربية ، ويقوم على اساسها توازن تلك الحضارة النفسي والاخلاقي ، ان فشل المسيحية ذاك من الاسباب الجوهرية للازمة الغربية كلها ؟ وهل لا يرى سولجنتسين حقيقة ان الماركسية ذاتها (بل وكل « الديانات » الشمولية الحديثة) عرض من اعراض البحث المحموم لتلك الحضارة ـ المزقة بين تقدمها التقني السريع الحاد الذي لا يتوقف ، وتخلفها الاخلاقي ـ عن ديانة جديدة تصلح للعصر ، وتحل محل المسيحية التي ثبت فشلها في اقامة اود تلك الحضارة انسانيا واخلاقيا وراب صدعها النكباني ، الذي يحدثنا عنه سولجنتسين بفصاحة ، والذي احدثته « الفجوةالثقافية» بين التقدم التقني والتخلف الاخلاقي تحت ضغط التغيرات الهائلة التي مرت تلك الحضارة وما زالت تمر بها ؟ وكيف يظن سولجنتسين انه متوصل الى انقاذ روسيا الحبيبة بالمسيحية ، والغرب كله ، بل وعالم الحضارة الصناعية كله من حوله في حالة جيشان ،ورفض، واصطخاب ، وبحث ، وانكار ؟ وكيف يظن انه متوصل الى حماية روسيا من تاثير التيارات الفكرية المندفقة كالتيارات الكهربية من قلب تلك الدوامة وهو القائل ان الماركسية ذاتها ليست الا داء اصابت روسيا به اوربا الملحدة ؟ام تراه يفكر هو ايضا ـ كمن يعارضهم ويدينهم من الكهنة المنافسين ـ في ان يضرب حول روسيا ستارا حديديا عقائديا مسيحيا جديدا لحمايتها من تلك التاثيرات الوافدة ، وتدثيرها جيدا بعباءة الدين ؟ وهل يا ترى يقف سولجنتسين موقفا يتاخر فيه كثيرا عن الصينيين انفسهم الذين ظنا انهم فطنوا ـ ودعك من كل هستيريتهم او غوغائيتهم التي يبدو انه لا مهرب من استخدامها في « سياسة » شعب يقرب تعداده من الف مليون ،فنحن نتحدث عن الفكر الهادىء المدبر الذي يحرك الخيوط من وراء واجهة بطوليات الهستيريا والغوغائية ـ فطنوا الى تلك الحقيقة المعاصرة البسيطة غاية البساطة ، المعقدة غاية التعقيد ، الا وهي انعالم اليوم مقبل على نقلة حضارية باعثة على الدوار لم تعد بعض الديانات والمعتقدات التي عاش ذلك العالم بها وفي ظلها حتى الان صالحة او ممكنة في خضمها ؟ اترى سولجنتسين ، والصينيون يتمردون على كونفوشيوس العظيم ، يوصي روسيا بالعودة الى احضان بولس الرسول ؟ ام ترى المشكلة كلها ماثلة في ان حكومة سولجنتسين المنافسة لم تجد ما تنافس به الكهنوت الماركسي الا اللاهوتالمسيحي، ولم تجد ما تلوح به من امل لانسان اواخر القرن العشرين ،بدلا من الفردوس الارضي المقبل في اخر الزمان الذي تعد الماركسية به عبادها المخلصين ، الا الفردوس السماوي المنتظر ، في العالم الاخر ، بعد انتهاء الزمان ، الذي تعد المسيحية به مؤمنيها المخلصين ؟وعلى المستوى الانساني ـ الاخلاقي ، اي شيء نكون حققناه ؟ الماركسية

---

(٦) « رسالة الى زعماء الاتحاد السوفياتي » ص ١٧ .
(٧) نفس المرجع ، ص ٤٤ .
(٨ ـ ٩) نفس المرجع ، ص ٥٦ .
(١٠) نفس المرجع ، ص ٢٨ .
(١١) « رسالة .. » ص ١٢ .
(١٢) « رسالة .. » ص ص ٢٣ ـ ٢٤ .

تقول للناس لا تعيشوا الان ، ريثما يتم عبور المطهر والجحيم ، ولسوف تعيش ، فيما بعد ، باذن التاريخ ، الاجيال القادمة . والمسيحية تقول للناس لا تعيشوا هنا ، ريثما يتم عبور هذا العالم الارضي الموقوت الزائل المرذول ، ولسوف نعيش جميعا ، فيما بعد، باذن الله ، في عالم ما بعد الموت ودار البقاء . وهذا وذاك كلام طيب وجميل بالنسبة للدعاة والمهيجين السياسيين ، او بالنسبة للقسس والمبشرين . لكنه كلام غريب عجيب من كاتب مستنير يرى ازمة عالم اليوم المتقدم على حقيقتها ، ويرى ان على الفنان التزاما اخلاقيا يوجب عليه ان يضع فنه في خدمة مجتمعه ، بل في خدمة البشرية (المتقدمة ، في حالة سولجنتسين .. اما البشرية المتاخرة فلها رب اسمه الكريم !) ويرى ان التزامه ذاك يتطلب من الفنان :

١ ـ ايقاف الناس (المتقدمين بطبيعة الحال) على ما يراه متربصا بهم من مخاطر ، وما يجده محدقا بهم من مهالك .

٢ ـ ايقاف الناس ، بصدق ، على اسباب معاناتهم وعذابهم ،

٣ ـ التورع عن اخفاء حقيقة الحاضر او الماضي ، وعن تجميل المستقبل وتزويقه كذبا .

(افلا يتطلب ذلك الامتناع عن ترديد الدعوة الى التنازل الان وهنا على وعد بمستقبل ما جميل ، ورائع ، وغير محدد ، وغير معروف متى يأتي ؟)

٤ ـ تفسير التاريخ القديم والمعاصر واستقراءه، ماضيا وحاضرا، لاستظهار المسارات التي يحتمل ان يتخذها مستقبلا ، عملا على تعزيز رؤية الفنان ، التي يوصله اليها حدسه ، وتوقفه عليها بصيرته ، بالاستقراء العلمي . (وماذا عن استقراء تاريخ المسيحية التاريخية ؟)

٥ ـ اقتراح الحلول لما تكشف عنه بصيرة الفنان من مشكلات وكوارث مقبلة ويعزز رؤيته لها الاستقراء العلمي . ويستوي ان يكون اقتراح تلك الحلول في شكل كتابات نظرية نضالية ، او اعمال ابداعية ، فالمهم هو ايقاف الناس على ما يتربص بهم اقتراح الحلول عليهم ، ولو ان الفن اكثر اقناعا من اية كتابة نظرية .

وفيما يخص الشعب الروسي والشعوب المتقدمة (او شعوب الحضارات العليا التي اخبرنا سولجنتسين انها كانت محط اهتمامه ومثار انشغاله دائما) تتركز تلك المخاطر بوجه خاص في احتمالات الحرب مع الصين وما سوف يترتب على حرب كهذه من دمار محتوم للشعب الروسي ، جنبا الى جنب مع خطر الهلاك الشامل للشعب الروسي وشعوب الحضارة الغربية معا في زحام ونتن ارض مختنقة بكثرة من يزحمون سطحها ، مسممة بالتقدم الصناعي المعربد الذي يلوث بيئتها ويقضي عليها ايكولوجيا . (١٣) .

الخطر الاعظم : الصين .

بواقعية حقيقية لا يرى سولجنتسين خطرا على الاتحاد السوفياتي من جانب الولايات المتحدة او اوربا الغربية . « لا احد على ظهر الارض يتهددنا (نحن الروس) غير الصين . ولا احد غيرها سوف يهاجمنا » . (١٤) فالخطر الاعظم ، عنده ، هو الصين : « .. فالمثل السائر عندنا يقول .. مثلما تنمو الغابة ، تنمو قبضة الفأس. وفي هذه الحالة : تسعمائة مليون فأس ! » (١٥) والغابة ، بطبيعة الحال ، هي الشعب الروسي ، اما التسعمائة مليون فأس ، فالشعب الصيني . وهو يعتقد ان الحرب مع الصين لن تكون حربا نووية خاطفة (ويبدو اسفا انها لن تكون كذلك) بل حربا تقليدية طويلة ، مكلفة بشريا وماديا ، وبشعة بشاعة خاصة لانها ستكون حربا ايديولوجية ، وهي افظع انواع الحروب .

والحل عنده بسيط : تلك حرب لا يجب السماح بوقوعها . يجب تلافيها باي ثمن . ولما كان منشأ الصراع ، فيما يراه ، التنافس بين روسيا والصين على من منهما الماركسي بحق ، والشيوعي بحق ، وبالتالي من منهما اجدر من الاخر بقيادة شعوب العالم الى الثورة العالمية ، فما على الاتحاد السوفياتي الا ان يقول للصينيين: عندكم حق ! انتم الماركسيون بحق ونحن اناس مارقون ومرتدون عن الماركسية ، بل اننا لا نريدها ، تلك الايديولوجية ، على الاطلاق، فتفضلوا وخذوها انتم ، كلها ، لكم . ومعها كل مسئولياتها ، واعبائها ، وكل نفقاتها المبهظة ، واريحونا منها ، « وتفضلوا انتم فانفقوا على الارهابيين ومقاتلي حرب العصابات في نصف الكرة الجنوبي ، اذا شئتم !» (١٦) واسمع لحكومة سولجنتسين المنافسة وهي تقول لزعماء الاتحاد السوفياتي :

« اعطوهم ايديولوجيتهم ! دعوا الزعماء الصينيين يهنأون بها لحظة ! » (١٧) .

وكأنه يتحدث عن « شلة » من الصغار يريدون ان ياخذوا الكرة من « شلة » منافسة !

« .. والقوا حولكم نظرة غير متحيزة : ان اعصار الايديولوجيا التقدمية الموحل المكر قد هب علينا ، فاجتاحنا ، من الغرب في اخريات القرن الماضي . وقد عذب ارواحنا ومزقها بما فيه الكفاية . وها هو الان ينحرف ليغور بعيدا عنا ، الى الشرق ، من تلقاء نفسه .. فدعوه ينجاب عنا . لا توقفوه !.. ولسوف يشفى شعبنا سريعا من ذلك الداء .. ومتى تلاشى ذلك الخلاف والتناحر الايديولوجي .. قد لا تقع حرب روسية صينية .. وحتى اذا وقعت ، فانها لن تكون الا في المستقبل البعيد ، ووقتها ستكون حربا دفاعية ، وطنية بحق » .(١٨)

ولم يقول سولجنتسين ذلك ؟ لانه ـ كما هو واضح ـ لا يعتقد ان عامل التنافس الصبياني (كما يصوره هو) بين روسيا والصين حول من منهما الماركسية بحق ، وهو السبب الحقيقي الكامن في جذور الصراع . فالرجل قد يكون متهوسا دينيا وقد يكون مستوعبا في كراهته الدينية للماركسية ، لكنه ليس من الغفلة والسذاجة بحيث تفوص منه في الرمال المتحركة لتلك الكراهية الابعاد الحقيقية لما يخوض فيه من قضايا ومشكلات . فهو واع تماما بخطورة العامل الديموغرافي(السكاني). ولذلك يقول انه حتى بعد التخلي عن شرف تمثيل الماركسية ، للصين ، سيتعين على الاتحاد السوفيتي ان يظل متيقظا لجارته المعلاقة :« اننا نخترع لانفسنا مصالح موهومة في المحيط الاطلسي ، والمحيط الهندي ، بينما (مصلحتنا الحقيقية) ماثلة في اننا يجب ان نظل مدركين انحاجتنا العسكرية الحقيقية طوال نصف القرن المقبل ستكون الدفاع عن انفسنا ضد الصين .. » (١٩) « فنحن ، في ختام القرن العشرين، لا يسعنا ان نتنازل عن ارضنا السيبيرية (للصين) ،ذلك شيء ليس محل مناقشة ..» (٢٠) فسولجنتسين ، كما اوضحنا في كل ما سبق ، ليس غافلا عن المشكلة الرهيبة المتمثلة في زيادة عدد سكان العالم زيادة حادة مطردة ، مع ثبات الكم المتاح لتلك الاعداد المتزايدة من البشر من الارض والموارد الطبيعية ، على مستوى العالم باسره ، لا بين روسيا والصين فحسب . وها هو يقول

---

(١٣) « رسالة .. » ص ٨ .
(١٤) نفس المرجع ،ص ٣٦
(١٥) نفس المرجع ، ص ١٣ .
(١٦) نفس المرجع ، ص ص ١٧ ـ ١٨ .
(١٧) نفس المرجع ، ص ١٨ .
(١٨) نفس المرجع ، ص ١٩ .
(١٩) نفس المرجع ، ص ٣٦ .
(٢٠) نفس المرجع ، ص ١٩ .

ان بلاده يجب ان تظل متاهبة ، لما لا يقل عن خمسين عاما ،لخوض حرب دفاعية « وطنية » ضد الصين ، لانها لا تستطيع ان تتنازل عن شبر من اراضيها في الشمال الشرقي ،بل ويجعل من اساسيات برنامجه تعمير ذلك الشمال الشرقي لتكون الكثافة السكانية فيه عائقا في وجه اي اجتياح صيني ويقول ان ذلك سيظل «افضل دفاع ممكن ضد الصين » (٢١) .

والسؤال الذي يطرح نفسه ، ما دام ذلك كذلك ، هو : اي نفع سيعود على روسيا ـ ما دامت الحرب شبه محتومة بينها وبين الصين ـ من تسليم الصين علم الثورة العالمية ، والتنازل لها عن الايديولوجية الماركسية ؟ الن يكون ذلك سلاحا جديدا في ايدي الزعماء الصينيين ضد روسيا التي ينظرون الى اراضيها ومواردها الطبيعية ويتلمظون بينما شعبهم يتزايد بشكل مخيف ،والارض والموارد تقل ولا تزيد ؟ وان كان اولئك الزعماء قد نجحوا حتى الان في تجييش شعبهم واثارة مشاعره ضد الاتحاد السوفيتي بمجرد اتهام الاتحاد السوفيتي بالمروق والانحراف عن الصراط الماركسي المستقيم ، فما بالك عندما تتخلى روسيا عن الماركسية تماما كما يدعوها سولجنتسين ؟ ما الذي لا يصبح في وسع اولئك الزعماء ان يفعلوه ، اذ ذاك ؟ وهل يعتقد سولجنتسين حقا ان روسيا ستصبح بمأمن من « الفؤوس الصينية » التي سيبلغ تعدادها عما قريب الف مليون اذا ما اصبحت مسيحية لا ماركسية ؟ اننا نناقش هنا انطلاقا من منطق سولجنتسين ذاته ، فهو يقول عن الشعب الصيني : «ستجدون انفسكم مواجهين بشعب يناهز تعداده الف مليون من البشر ، لم يذهب مثله شعب الى ميدان القتال في التاريخ كله . ويبدو ان كل ما مضى من وقت منذ عام ١٩٤٩ لم يكف لكي يفقد ذلك الشعب دابه التقليدي وحبه للعمل (وهو يفوقنا قطعا في هاتين الخاصيتين الان) ومدى استماتته ، وصلابته ، وخضوعه للسلطة ، وانصياعه لقادته . وهو شعب يعيش في ظل نظام شمولي لا يقل يقظة عن نظامكم الذي نعيش في ظله . ذلك شعب لن يسلم ـ اذا دخل الحرب ـ لا هو ولا جيشه (كما قد يسلم اي شعب اوربي برجاحة عقل اذا ما حوصر وغلب على امره) بل سيقاتل حتى اخر جندي ، واخر مدني ، واخر رصاصة ،فعلا ، واخر رمق ..» (٢٢) .

ان سولجنتسين لا يريد لشعبه ان يدخل حربا بسبب الماركسية مع ذلك الشعب ، ويقول لزعماء بلاده : اعطوهم ماركسيتهم ،وليذهبوا بها الى الجحيم . طيب . والارض ؟ والموارد الطبيعية ؟ وان كان التنازل للصينيين عن راية الماركسية لن يضمن بحال انتفاء خطر الحرب معهم كمايقول هو ، بل قد يضع سلاحا اقوى في ايدي الزعماء الصينيين لدفع شعبهم الى الحرب مع « الروس المرتدين »، وهو شعب ـ على ما يصفه سولجنتسين ـ مطواع ، ومنقاد ، ومستعد للموت ، فما حقيقة الحل الذي يراه سولجنتسين ؟ انه يقول ان الدفع الحثيث نحو الحرب الصينية الروسية راجع الى سببين، اولهما « الضغط الديناميكي للصين التي يبلغ تعداد سكانها الف مليون نسمة على اراضينا التي لم تستغل بعد في الشمال الشرقي، لا مجرد الشريط الضيق من الارض المتنازع عليه الان على اساس المعاهدات السابقة .. بل سيبيريا كلها .. ولسوف يزداد ذلك الضغط بازدياد ضغط الانفجار السكاني على ارض الكوكب كلها .. » (٢٣) ويقول ايضا ، كما اشرنا لتونا ، ان روسيا ليست على استعداد ، تحت اية ظروف ، للتخلي عن تلك الارض لاحد، وان تلك مسالة لا نقاش فيها . وما دام ذلك كذلك ، فما حقيقة الحل الذي يراه سولجنتسين ؟ تعمير الشمال الشرقي وزيادة الكثافة السكانية به ؟ فوق ان ذلك المشروع . كما يقول زخاروف في رده على سولجنتسين .من الضخامة بحيث لا يستطيع الاتحاد السوفياتي بمفرده ان يقوم بأعبائه (٢٤) فهل تكفي تلك الكثافة السكانية ـ مهما عظمت ـ لصد الالف مليون فأس المتعطشة لدماء«المرتدين» واراضيهم ؟ ام ترى في ذهن سولجنتسين حل اخر ، هو التحالف مع اعداء اخرين للصين ؟ وبصرف النظر عن ان اولئك الاعداء يسعدهم ان يروا الصينيين والروس يذبحون بعضهم بعضا ،ويحاولون في سياستهم الخارجية ان يضربوا هؤلاء باولئك (يشهد بذلك ، على سبيل المثال ، انه بينما كان نيكسون في موسكو منهمك في اقناع بريجنيف بخفض التسلح وزيادة التعاون التقني والصناعي مع الولايات المتحدة ، كان السناتور الديموقراطي هنري جاكسون،الذي يغلب ان يرشح في انتخابات الرئاسة الاميركية القادمة قد ذهب الى الصين ، لتوثيق عرى « التفاهم » مع ماو)، نقول بصرف النظر عن ذلك ، ماذا عن الشعب الصيني ذاته في كل هذا ،وهو شعب يضم الف مليون من البشر ؟ ام ترى ذلك الشعب من تلك الشعوب التي لا يحسب لها او لبقائها حساب ، في قاموس سولجنتسين ، كالعرب ، والاسيويين ، وشعوب اميركا اللاتينية « التي لا يهدد بالاستيلاء على بلادها احد » ، والافريقيين ؟

ولنصغ الى ما يقوله خبراء الغرب الاستراتيجيون انفسهم ،على اية حال :

« ان اي قرار بضرب الصين ، اما بهجوم نووي « جراحي »مباغت يهدف الى تدمير قدرتها النووية ،او بهجوم بري جوي اما في الشمال ، او الشمال الشرقي ، قرار لن يتخذه الا المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي ، على ضوء الاهداف السياسية للاتحاد السوفيتي . ولقد كانت تلك الاهداف دائما ضد القيام بعمل عسكري موجه الى الصين . فالصين باقية ، ولسوف تظل دائما حيث هي على الحدود الشرقية للاتحاد السوفيتي ، وسياسيا : لا يوجد مطلب للاتحاد السوفياتي في تدميرها والقضاء عليها ، بل في ان يحكمها اناس اكثر اعتدالا وميلا للسوفيت . ولسوف يقضي اي عمل عسكري ضدها ، خاصة متى تضمن استخدام الاسلحة النووية ، ولزمن طويل ، على كل امكانية لقيام حكومة موالية للسوفيت في بكين ، او حتى اقل عداء لهم . ومن المحتمل ان يكون قيام مثل تلك الحكومة اهم ـ بالنسبة للاتحاد السوفياتي ـ من صين محطمة قد تحول مجتمعها وتحولت قدراتها الاستراتيجية الى انقاض بسبب عمل عسكري من جانب السوفيت .

« كما ان مبادأة الاتحاد السوفياتي باستخدام الاسلحة النووية، خاصة ضد بلد اسيوي ، ومن بلدان العالم الثالث (والصين معتبرة كذلك في اعين كثرة من بلدان اسيا وافريقيا واميركا اللاتينية) سينطوي على خسارة سياسية كبرى للاتحاد السوفيتي . وعلى الزعماء السوفيت ان يأخذوا في حسبانهم كذلك ان الاثار التي ستترتب على اي هجوم سوفيتي ضد الصين ، في الظروف الراهنة، او تلك التي ستكون قائمة في المستقبل المرئي ، ستتضمن ما يكاد يكون توقفا تاما لنمو علاقة الاتحاد السوفياتي الثنائية بالولايات المتحدة الاميركية (بل ، وفيما يحتمل ، انهيار تلك العلاقة كلية ، لزمن طويل) ، جنبا الى جنب مع موجة من الانفجارات المعادية للسوفيت في العالم الثالث ، ونكسة كبرى لسياسة الاتحاد السوفيتي الاوروبية ، بالاضافة الى تعاظم العطف والتاييد للصين ،والعناصر

---

(٢١) نفس المرجع ، ص ٣٦ .
(٢٢) « نفس المرجع .. » ، ص ١٤ .
(٢٣) « نفس المرجع » ، ص ١٦ .

(24) Andrei Sakharov : « Solzhenitsyn's proposals » The Times , April 16 , 1974 .

الموالية للصين في صفوف « اليسار » اجمع ، على مستوى العالم كله . ذلك غير العمل العسكري المضاد من جانب الصين ، الذي قد يتضمن الحاق اضرار بالغة بالمدن السوفياتية في الشرق الاقصى، بل وفي روسيا الاوروبية ذاتها ، والاحتمال القائم بان تعمدالولايات المتحدة الاميركية الى امداد الصين بما يعوضها عما تفقده او تستخدمه من اسلحة نووية . وفوق هذا وذاك كله، فان تورطالقوات السوفياتية في تلاحم بري بالقوات الصينية سيوقعها في ورطة صراع طويل غير متكافيء عدديا مع الجيوش الصينية التي تعد بعشرات الملايين ،وهو صراع لا يكاد يكون بوسع الزعماء السوفيت التنبوء بنتائجه .

« وهكذا فان الادلة المتوفرة توحي بان الاتحاد السوفيتي لا يسعه ان يفعل الا اقل القليل لمنع او اعاقة نمو قوات الصين الاستراتيجية، وان افضل ما يمكن له ان يفعله هو ان ينتظر انتهاء عهد ماو على امل ان تكون الانظمة التي ستخلفه اقل تطرفا في عدائها للسوفيت او اقل تجانسا من الديكتاتورية المتمركزة الراهنة .. » (٢٥)

وعلى ضوء ذلك كله ، هل يحل المشكلة قيام الاتحاد السوفيتي بالقاء الماركسية في وجه الصين ، والتحول الى « بلد بورجوازي » على حدودها (وذلك ، على الاقل ، هو ما سيصفه به الصينيون وقتئذ) واعطاء الركيزة الايديولوجية التي تشعل سعار الحرب في صدور الملايين الصينية التي يصفها سولجنتسين ، اعطاء تلك الركيزة لاي متهور او داعية حرب في صفوف القيادة الصينية ، وحتى مع استمرار الاوضاع على ما هي عليه ، فاي نفع سيكون لتعمير الشمال الشرقي وزيادة الكثافة السكانية به ، من وجهة النظر الدفاعية ، في وجه خروشتسوف ، وهو في اوج سلطانه ، وقال له : لا ، فذلك جندي واخر رصاصة واخر رمق كما يقول سولجنتسين ، وفي وجه الهجوم ـ او الرد ـ النووي المحتمل من جانب الصين ، كما يقول تقرير معهد الدراسات الاستراتيجية الذي سقنا الاستشهاد السابق منه ، اي جدوى ستكون ـ دفاعيا ـ لبناء المدن وزيادة الكثافة السكانية الا تعريض المزيد من جسد روسيا الحي لاسنان الصينيين ؟

ولنلق بسمعنا الى وجهة نظر اخرى ، جاءت في رد العالم النووي والمثقف الروسي المنشق ، اندري زخاروف ، الذي وقف في وجه خروشتشوف ، وهو في اوج سلطانه ، وقال له : لا ، فذلك انسان لا يشك احد في مواقفه :

« اعتقادي ان وجهة نظر سولجنتسين (فيما يتعلق بالصراع مع الصين) تضخم الموقف تضخيما مبالغا فيه ، مع تسليمنا بان الموقف ليس بسيطا او سهلا او خلوا من السحب . فمعظم الخبراء في الشئون الصينية يرون ـ فيما يبدو لي ـ ان الصين لن تكون لديها، لوقت طويل ، القدرة العسكرية التي تمكنها من شن حرب عدوانية ضد الاتحاد السوفيتي ، وانه اذا ما وجد المغامرون الذين يتوصلون الى دفع الصين الى خوض غمار مثل تلك الحرب فانهم سيزجون بها ـ في الواقع ـ في مازق حرب انتحارية ، بينما سيكون شن حرب عدوانية ضد الصين ، من جانب الاتحاد السوفيتي ، امرا مقضيا عليه بالفشل . بل ولقد يرى البعض ان الانسياق وراء تضخيم الخطر الصيني بهذه الصورة ربما يكون من العناصر الداخلة في اللعبة السياسية التي تقوم بها الزعامة السوفيتية حاليا ، وبذا فان المبالغة في تقدير مثل ذلك الخطر (من جانب سولجنتسين او غيره) ليس مما يخدم القضية التي نعمل من اجلها جميعا وهي قضية التحول الى الديموقراطية والتحلل من غلبة العسكرية في بلادنا وهو ما تحتاجه روسيا والعالم اجمع حاجة ماسة . ثم .. هناك امر اخر ، وهو ان الشعب الصيني يواجه ، مثلما تواجه شعوب عديدة في عالمنا ، مصيرا فاجعا ينبغي ان يكون مثار انشغال البشرية جمعاء (*) .. والذي يبدو لي ، على اية حال ، ان سولجنتسين يعطي الايديولوجية اهمية اكثر مما لها (**) سواء في نظرته الى الصراع مع الصين ، او فيما يتعلق بغير ذلك من القضايا التي يثيرها . والذي لا ينبغي ان يغيب عنا ان الزعماء الصينيين ليسوا باقل براجماتيكية من الزعماء السوفيت .. »

الخطر الداهم الثاني : استمرار التقدم التقني .

يقول سولجنتسين : « ان الهلاك التقني ليس اقل فظاعة وتهديدا من الهلاك بالحرب . » (٢٧) والهلاك التقني الذي يشير اليه من مخاطر الانسياق وراء النمو الاقتصادي المطرد ، والتقدم العلمي والصناعي الذي لا يقف عند حد ، مع ما يترتب عليه من استنفاد للموارد الطبيعية ، وتلوث للبيئة :

« فالخطر الذي يلي خطر الصين هو المازق المزدوج الذي باتت الحضارة الغربية (وهي حضارة اختارت روسيا من زمن طويل شرف الانتماء اليها) تجد نفسها فيه . لكن ذلك الخطر ليس وشيكا كالخطر الصيني ، لانه ما زالت بيننا وبينه سنوات عديدة : عقدان او ثلاثة عقود . ونحن نشترك في التعرض لذلك الخطر مع كافة البلدانالمتقدمة التي تعاني الان من ورطة اسوأ مما نحن فيه .. ولقد كان بوسعنا ان نتجنب كل ذلك لو ادركنا فقط تلك الحقيقة البسيطة التي لا تغيب عن فطنة اي فلاح روسي ، وهي انه طالما كانت الارض شيئا محدودا ومتناهيا ، فان مساحاتها المتاحة ومواردها تكون محدودة ومتناهية هي ايضا . فالف دودة لا تستطيع ان تظل تقضم نفس التفاحة الى الابد. ولذا فان التقدم اللامتناهي ، بغير حد ، الذي ظل الحالمون من مفكري عصر التنوير يدافعون في الرؤوس دفا باعتباره غاية عظمى ، لا سبيل الى بلوغه على هذه الارض . (ولننظر الى النتيجة :) كل ذلك التقدم بلا توقف قد تبين انه اندفاع جنوني ، هائج ، لا عقل فيه ولا تدبر ، في حارة مسدودة . والحضارة المنهومة الى التقدم الذي لا ينقطع قد بدات الان تختنق بتقدمها ، وها هي موشكة على الانهيار . وكل هذه اشياء اذيعت ونوقشت على نطاق واسع في الغرب بواسطة جماعة تيلهار دوشاردان ، ونادي روما . وفيما يلي النتائج التي توصل اليها اولئك السادة بشكل بالغ التركيز :

« يجب على المجتمع المتقدم ان يكف عن النظر الى التقدم باعتباره شيئا مرغوبا فيه . والتقدم اللامتناهي اسطورة عديمة المغزى. والذي يجب النظر اليه الان والاتجاه الى تنفيذه ليس الاقتصاد دائم النمو، مطرد التوسع ، بل الاقتصاد الذي يتوقف النمو فيه عند درجة الصفر، اي الاقتصاد المستقر . فاستمرار النمو الاقتصادي ليس غير ضروري فحسب ، بل هو مفض الى الخراب . والهدف الذي يجب ان نضعه نصب اعيننا ليس زيادة مواردنا القومية ، بل مجرد المحافظة عليها .

(*) « البشرية جمعاء » ، كما يقول زخاروف ، بما فيها الكتاب ، بطبيعة الحال ، ومنهم سولجنتسين ، لكن كل اهتمامه بالشعب الصيني اقتصر على قوله : « .. وذلك لا يعني اني ارغب في دمار الصين روحيا . فانا مؤمن بان شعبنا سيشفى من ذلك الداء(الماركسية) سريعا ، والصينيين ايضا ، مع الوقت ، واني لامل الا يفوت الاوان لانقاذ بلدهم وحماية البشرية . » (« رسالة » ، ص ص ١٨/١٩) .

(**) « يعطي الايديولوجية اهمية اكثر مما لها » .. طبعا . فالايديولوجية هنا مسالة صراع ، « ديني » الصبغة مع الماركسية التي ينظر اليها سولجنتسين باعتبارها لاهوتا منافسا للاهوت المسيحي .

(٢٦) مقال زخاروف في الرد على سولجنتسين ، السابقالاشارة اليه ، بالتايمز اللندنية ١٩٧٤/٤/١٦ .

(25) Strategic Survey 1973 , an I.I .S.S. Publication London , 1974 , pp . 68 - 69 ,

يجب علينا ان ننصرف ، بشكل عاجل ، عن الاستمرار في العملقة التكنولوجية الحديثة في الصناعة ، والتنمية الريفية والحضرية المكثفة (فمدن اليوم قد تحولت الى اورام سرطانية) . والهدف الرئيسي الذي ينبغي ان نوجه اليه التكنولوجيا الان يجب ان يكون العمل على محو النتائج المؤسفة لما تم تحقيقه من تقدم في ظل التكنولوجيات السابقة .

« والعلماء الذين يقولون كل هذا توصلوا الى نتائجهم هذه بفضل حسابات اجروها باستخدام الحاسبات (العقول) الاليكترونية على اساس تغذية تلك الحاسبات بالمعطيات التي تمثل عدة مسارات بديلة ومتباينة للنمو الاقتصادي ، فكانت النتائج كلها قاطعة بان كل تلك المسارات جميعا ميئوس منها ، بل واشارت تلك النتائج ـ بطريقة منذرة بكل شر ـ الى ان النتيجة المحتومة للاستمرار في التقدم التقني والنمو الاقتصادي ستكون الدمار النكبائي للجنس البشري كله فيما بين سنة ٢٠٢٠ وسنة ٢٠٧٠ ، اذا لم يتخل ذلك الجنس البشري عن حواذ التقدم . وقد اخذت تلك الحسابات في الاعتبار خمسة عوامل رئيسية : عدد السكان ، والموارد الطبيعية ، والانتاج الزراعي، والصناعة ، وتلوث البيئة .

« وان كان لنا ان نصدق ما انتهت اليه الحاسبات الالكترونية ، فان بعض موارد الارض في طريقها الى ان تستنفد ، وبسرعة : فلن يكون هناك نفط بعد عشرين سنة ، ولا نحاس بعد تسع عشرة سنة ، ولا زئبق بعد اثنتي عشرة سنة . وهناك موارد طبيعية اخرى قد قاربت النفاد الان . وغير مواد الطاقة ، هناك اشياء هامة كالماء العذب النظيف القابل للشرب ، قد باتت محدودة للغاية . وحتى اذا ما كشف التنقيب مستقبلا عن احتياطيات مخزونة في باطن الارض من كل ما سبق ومما عداه من ثروات طبيعية ، وحتى اذا بلغت تلك الاحتياطيات المخزونة ضعف او ثلاثة اضعاف ما هو معروف منها حتى الان ، وحتى اذا تمكن الانسان من مضاعفة الانتاج الزراعي ، ونجح في اخضاع الطاقة النووية اللامحدودة وتطويعها في خدمته ، فان سكان العالم ، في كل تلك الاحوال ، سيدركهم الهلاك الجماعي خلال العقود الاولى من القرن الحادي والعشرين ، ان لم يكن بسبب تباطؤ الانتاج ثم توقفه نهائيا (نتيجة لنفاد ما هو متاح من ثروات طبيعية) ، فبسبب فائض الانتاج (تدمير البيئة نتيجة للاندفاع في النشاط الصناعي غير المتحكم فيه) .. فهو هلاك لا مهرب منه ايا كان المسار الذي نتخذه .

« وعندما يكون كل شيء » ، كما هي الحال الان ، رهنا بالتقدم، فانه يكون من المستحيل العثور على حل امثل مشترك (*) لكل المشكلات الخمس المتفاعلة فيما بينها ، التي اشرنا اليها سابقا ، في وقت واحد معا (وهي مشكلات تزايد السكان ، وتناقص الموارد الطبيعية ، وعدم ملاحقة الانتاج الزراعي لزيادة السكان ، والنشاط الصناعي غير المتحكم فيه ، وتلوث البيئة) وبذلك فانه اذا لم يتخل الجنس البشري عن هوس التقدم الصناعي والنمو الاقتصادي سوف تحل به نكبات لن يكون اهونها فساد الغلاف الجوي للارض بحيث يصبح غير صالح لاستمرار الحياة ، وفي وقت ليس ببعيد .. في اثناء حياة جيلنا . وان كان لجنسنا البشري ان ينجو من ذلك المصير، فانه يجب ان يكبح جماح التكنولوجيا ويكيفها لتتوادم مع اقتصاد ثابت يظل بلا نمو لمدى عشرين او ثلاثين سنة من الان . وحتى تتاح الفرصة لذلك يجب ان نبدا من الان ، فورا . » (٢٧)

وبادىء ذي بدء (رغم ان سولجنتسين ينتابه ذعر ، كلما جاء ذكر للتقدم التقني ، كمن يرى عفريتا) نحن لا نختلف معه حول نقاط عديدة واساسية في ذلك كله ، وان كان ينبغي ان نذكر ان انساسا كثيرين قبله (كتوماس كارليل مثلا ، في وقت لم يكن شيء مما يتحدث فيه سولجنتسين الان يخطر ببال اشد المتشائمين تشاؤما) قالوا مثل ما يقول الان واكثر ، ولم تقع الكوارث التي تنبأوا بها اذا لم يصغ العالم لما يقولون .. لم تقع تلك الكوارث على النحو الذي تنبأوا انها ستقع به ، على الاقل . ورغم ذلك ، فاننا ، كما قلنا ، لا نختلف مع سولجنتسين حول نقاط عديدة ، بل قد نكون من اوائل من نبهوا الاذهان ، في بيئتنا الفكرية اللاهية عن كل ذلك ، ومنذ عام ١٩٧٠ (٢٨) لعدد من القضايا الاساسية التي يتحدث فيها الان ، كاخطار التلوث ، والنمو الصناعي ، والتضخم الحضري ، والانفجار السكاني، كما ناقشها عدد من كبار العلماء والمثقفين في العالم الصناعي والعالم الثالث في مؤتمر عقد باستوكهلم في مطلع ذلك العام وتسلطت على مناقشات من اشتركوا فيه (*) المشكلة التي يثيرها سولجنتسين الان: مشكلة بقاء الانسانية او فنائها . ولو رجعنا الى مناقشات ذلك المؤتمر لوجدنا كل اساسيات رسالة سولجنتسين الى زعماء بلاده :

« ولقد تمخض المؤتمر عن مواجهة قاسية صارمة في تحليلاتها وفيما كشفت عنه ، اليمة عميقة التشاؤم في توقعاتها . فهو « مؤتمر قمة » على مستوى عالمي ، ضم عددا من اعظم العقول في عالمنا المعاصر ، وتجاوز كل حدود التخصصات ، والمذاهب الاجتماعية او العقائد السياسية ، مؤتمر دولي بحق ، ضم عقولا من اوربا والشرق، من الاتحاد السوفيتي ، وانجلترا ، وفرنسا ، واميركا ، واسيا ، وافريقيا . وعلى طول المناقشات وعرضها تسلطت على العقول .. مشكلة بقاء الانسانية او فنائها : كيف يستطيع الانسان ان يعيش العصر العلمي الصناعي ، وكيف يتصرف في مواجهة بعض الاثار التي لا مهرب منها للتقدم التكنولوجي ؟

« القى العلماء والكتاب والمفكرون الذين اشتركوا في المؤتمر ضوءا مفجعا على تلك المسائل من خلال تحليلهم لها . ولقد يبدو للمرء ، عندما يتدبر الاخطار الجسيمة المتربصة بالبشرية ، ان الحرب النووية اول تلك الاخطار جميعا .. لكن المشتركين في مؤتمر ستوكهلم اهتموا باخطار اخرى وجدوها اجدر بالدراسة من حيث انها اكثر الحاحا واشد تهديدا للعالم المعاصر .. مشكلات كتلوث الماء والهواء، والانفجار السكاني ، كلها مفضية على المدى الطويل الى صراع رهيب اشد خطرا من اية حرب نووية ، لانه سيكون صراع ابادة منظمة لاجناس باكملها ، فهي مشكلات يتطلب ايجاد الحلول لها انقلابا كاملا في مواقفنا وتغيرا جذريا في طرق تفكيرنا .. فالمتخصصون الذين اجتمعوا في ستوكهلم قد اجمعوا بلا استثناء على ان تلوث الهواء ومياه الانهار والبحار والمحيطات خطر ماحق يتهدد البشرية ولا يمكن تداركه الا بعمل عاجل على المستوى الدولي . ذلك التلوث المتزايد يبدو حتى الان كمرض لا علاج له من امراض العصر الصناعي ، بما تسببه مخلفات المصانع وعوادمها من تسمم وتلوث للماء والهواء ، وهي مشكلة يحسها السويديون كمازق حضاري حيث تشكل صناعة الورق التي تعتبر مصدرا من المصادر الاساسية لثروتهم القومية ، خطرا قاتلا .. والمدن هي الاخرى (**) الكل متفق على ان نموها الرهيب اصبح

(*) « حل امثل مشترك » يجعل من الممكن حل كل مشكلة منها دون ان يكون حلها على حساب الاخرى .

(٢٧) « رسالة .. » ص ص ٢٠/٢٣ .

(٢٨) « مؤتمر الرعب باستوكهلم » الهلال ـ مارس ١٩٧٠ ص ص ٩١/٩٧ .

(*) على سبيل المثال لا الحصر ، اشترك في ذلك المؤتمر اناس كالعالم الفرنسي جاك مونو ، وعالم الكيمياء الاميركي الحاصل على جائزة نوبل مرتين : لينس بولينج ، وعالمة الانثروبولوجيا مارجريت ميد ، والعالم الالماني كارل لورنز ، وكتاب وشعراء امثال و.هـ. اودن، وآرثر كويستلر ، وعلماء اجتماع واقتصاد .

(**) وقد ركز عليها سولجنتسين تركيزا خاصا في رسالته .

سرطانا حضريا لا علاج له .. والانفجار السكاني ايضا .. » (٢٩)

فانت مستطيع ، اذا رجعت لذلك المقال ، او الى محاضر جلسات ذلك المؤتمر ، ان تجد كل ما تحدث فيه سولجنتسين واقام الدنيا واقعدها به متهما زعماء بلاده بالاهمال المشين . لكن هناك شيئا واحدا اختلف فيه سولجنتسين عن اولئك الكبار حقا الذين اجتمعوا في ستوكهلم في مطلع سنة ١٩٧٠ : اختلف عنهم في المنظور الذي رأى تلك المشكلات من خلاله . فبينما اهتم اولئك الناس بمصير الناس جميعا ـ باعتبارهم بشرا لهم نفس الحق الاساسي في البقاء ـ سواء كانوا في نصف الكرة البارد او نصفها الدافىء (والتمييز من عند سولجنتسين) بينما اهتم صاحبنا « بشعوب الحضارات العليا » ، وعلى وجه التحديد بالشعوب الروسية والاوكرانية . وبينما ينتاب سولجنتسين ذعر ، فيدعو بلاده الى التخلي عن التقدم والتقدمية في وقت معا ، والنكوص الى مجتمع طوباوي منعزل ، يقفل ابوابه على نفسه في وجه العالم اجمع ، محاولا النجاة وبعده الطوفان ، نجد رجلا عالما بيولوجيا ، لا هو كاتب ولا فنان ، هو الفرنسي جاك مونو ، قائلا في مؤتمر ستوكهلم ذاك ان كل تلك المخاطر التي استعرضها زملاؤه وناقشوها استفحلت ، وارتكبت البشرية كل تلك الاخطاء المهلكة في حق نفسها ، وما زالت ، لانها ظلت تعيش بمجموعة من القيم لم تعد صالحة اطلاقا للعصر ولا قبل لها بمتطلباته ، وانه وان كان العلم ليس مختصا او قادرا على تزويد البشرية بوسائل التقدم وفي الوقت ذاته بقيم واخلاقيات جديدة ، فان العلم يتيح لنا ، بالاقل ، ان نتبين مدى القصور المعيب الذي باتت تتصف به قيمنا في مواجهة المطالب الملحة للعصر .. وهو ما قد يحفزنا الى ان نبحث لانفسنا عن قيم جديدة نعيش العصر بها ونتعامل معه (٣٠) . وقد صدق مونو عندما قال ان البحث عن تلك القيم ليس من اختصاص العلم ولا هو في حدود قدراته . فتلك ، كما يقول لنا سولجنتسين ، مهمة الفنوالادب، خاصة « في هذا القرن العشرين الذي نعيش فيه ، والذي تبين انه اشد قسوة من كل القرون التي سبقته » . ولقد تحدث سولجنتسين طويلا ـ كما اسلفنا ـ عن القيم ، وسلالم القيم . ولكن هل هو مهتم بالبحث عن قيم جديدة لانسان العصر الجديد حقا ؟ بل هل هو مقتنع اساسا ان العصر يتطلب مجموعة قيم جديدة ؟ كل ما قاله لنا لا يشير ولو من بعيد الى وجود مثل ذلك الاقتناع لديه . وبالحقيقة ، ما حاجة انسان العصر الى البحث عن قيم جديدة ، وقيمه التي عاش بها وفي ظلها حتى الان ماثلة وجاهزة وفي متناول اليد ، وما عليه الا ان يعود الى المسيحية ؟ طيب ، واولئك الذين ولدوا وهم اصحاب ديانات اخرى ؟ آه . هذه مشكلتهم . ثم اننا ننسى ان سولجنتسين مهتم بالشعب الروسي فقط وبتخليصه من الماركسية والالحاد واعادته الى حظيرة الدين (*) . ولقد قلنا ان الرجل ، من بعض الاوجه ، يبدو اشبه بكيبلنج روسي . وهو ليس داعية غزو او شاعر امبراطوريات . لكن ذلك لا ينفي الشبه بينه وبين كيبلنج ، وليكن الشمال الشرقي الروسي شبه قارته الهندية . لكن كيبلنج عاش في عصر ، وسولجنتسين يعيش في عصر اخر . وكيبلنج مذموم في تاريخ الادب ، فما بالك بكاتب مثل سولجنتسين يهاجم زعماء بلاده ، في اواخر هذا القرن الذي تبين انه اشد القرون قسوة لانهم يتمسكون بالماركسية ولا ينقلبون الى « الوطنية » : « وكل رسالتي هذه اليكم منصبة بالذات على الوطنية ، التي تعني نبذ الماركسية. لان الماركسية تامرنا ان نترك الشمال الشرقي مهملا ، غير مستغل ، ونترك نساءنا ممتهنات بالعمل اليدوي ، وان نمول بدلا من ذلك الثورة العالمية ونعجل بوقوعها . » (٣١) والمزعج انه بينما يتعامى كاتب مثل سولجنتسين ويصم اذنيه ، يقف رجل لا شان له بالفن الذي سينقذ العالم بالجمال ، ولا بسلالم القيم ، كالعالم الاميركي الكيميائي «لينس بولينج» ، ربيب اعتى المجتمعات الراسمالية في عالم اليوم ، فيقول ان عالم اليوم يتردى في كل ما هو متردد فيه من مهاو لانه يدار لحساب قارة محدودة لا تزيد عن مليون . ويدعو الى مصادرة ثروات اولئك الناس ، افرادا كانوا او اسرات ، مع تأمين دخول معقولة لهم تكفل لهم حياة انسانية سوية ، وكف سيطرتهم عن العالم ، بحيث تستطيع البشرية ان تنصرف حقا الى مواجهة المهام العظمى الملقاة على عاتقها. (٣٢) وهكذا فان سولجنتسين يقف ـ من جانب ـ متأخرا بضعسنوات عن مفكري الغرب ومثقفيه في اثارته لهذه القضايا التي اقام الدنيا بها واقعدها ، واثقل الوطء على زعماء بلاده بسببها وهي قضايا مثارة ومطروحة للنقاش في العالم الصناعي على نطاق واسع ، من وقت طويل ، بل وقد بدا الاهتمام بها ينتقل من مرحلة النقاشوالبحث عن الحلول ، الى مرحلة ابداع الحلول وتجربتها . كما يقف سولجنتسين ـ من جانب اخر ـ وهو الاسوأ ، متخلفا بفراسخ عديدة عن اولئك الغربيين ، الذين يكرر الان ما قالوه منذ سنوات ، تخلفا اخلاقيا وانسانيا . ولقد يكون ابعد الناس عن مظنة التجني على سولجنتسين، او اساءة الظن به ، او عدم فهم حقيقة ما يقول ، واقدر الناس ـ لذلك ـ على ايضاح ذلك التخلف الاخلاقي الانساني الذي اتسم به موقف سولجنتسين في معالجة هذه القضايا وغيرها ، مواطنه المنشق مثله ، العالم النووي اندري زخاروف . فلنسمع لما يقول :

« وفي رسالة سولجنتسين اوجه بعينها لموقف الكاتب اقول الحق انها ازعجتني واثارت قلقي وعدم رضائي كلما اعدت قراءتها . من تلك الاوجه بشكل خاص وجه يصدم المرء في رسالته الا وهو تركيز اهتمامه بصورة تامة ، ومع اسقاط كل اعتبار اخر من حسبانه، على مشكلات الشعب الروسي ومعاناته . وبطبيعة الحال فان لكل امرىء الحق في ان يكتب عما يعرفه معرفة مباشرة ، وان ينشغل بما يحرك مشاعره بطريقة مباشرة ملموسة تمسه في الصميم . غير ان المرء لا يمكن ان يسقط من حسابه اشياء كنفي البشر وتشريدهم وممارسة الابادة ضد حركات التحرر الوطني ، والقضاء على الثقافات القومية .. والواقع اني ـ على العكس من سولجنتسين ـ اعتبر ان روح العبودية والخنوع التي ظلت فاشية في روسيا طوال قرون، بالاضافة الى احتقار الاجانب ، وازدراء الشعوب الاخرى ، والنفور من غيرنا من البشر والديانات الاخرى ، من افظع البلايا التي ابتلينا بها ، ولا اعتبرها (كما يعتبرها سولجنتسين) علامة صحة في بنيتنا القومية . » (٣٣)

اما روي ميدفيديف فيقول : « ان هذه الوثيقة (رسالة سولجنتسين) كانت مصدر خيبة امل عميقة للسواد الاعظم من اولئك الذين يكنون احتراما صادقا لسولجنتسين لما ينصف به من موهبة فنية ، وما يتحلى به من شجاعة .. والواقع ان الوثيقة كلها تنطق باتجاه قومي بالغ الخطورة ، وتتسم بضيق افق ظاهر . » (٣٤)

---

(٢٩) المرجع السابق ، ص‌ص ٩٣/٩٥ .

(٣٠) « مؤتمر الرعب باستوكهلم » ـ الهلال ـ مارس ١٩٧٠ ، ص ٩٥ .

(*) وسولجنتسين ليس غافلا عن فجوة القيم او فراغ القيم في عالم اليوم ، وهو يقول « .. ولولا حاجة البعض من المعاصرين الى « ديانة » يعتنقونها ، لما كانت الماركسية وجدت كل اولئك المؤمنين بها ـ رغم افلاسها ـ في الغرب » (« رسالة » ـ ص ٤٣) .

(٣١) « رسالة .. » ص ٤٥ .

(٣٢) « مؤتمر الرعب باستوكهلم » ، المرجع السابق الاشارة اليه ، ص ٩٧ .

(٣٣) مقال زخاروف السابق الاشارة اليه ، بالتايمز عدد ١٦ ابريل ١٩٧٤ .

(٣٤) « اصدقاء سولجنتسين السوفيت ينقلبون عليه » ـ الجارديان عدد ٢٩ ابريل ١٩٧٤ .

ولقد قلنا من قبل ان سولجنتسين يبدو كما لو كان ، في مجال الادب ، تكرارا ، تاخر عن وقته ثلاثة عقود او يزيد ، لمثقفي وكتاب الغرب الذين عاصروا ازمة الحرب الاهلية الاسبانية . وها هو ، في مجال النذير الاجتماعي ، يبدو كتكرار متاخر ايضا ، ومغلوط، لعلماء الغرب ومثقفيه . ولعل ذلك ـ الى حد ما ـ ذنب الجو الفكري المقفل المذعور من التعرض للتيارات الوافدة ومناقشتها ، وهو الجو الذي جعل من هذا الكاتب ما نصفه بانه تكرار متاخر زمنيا واخلاقيا، والذي ادى ـ في نفس الوقت ـ الى طرده من بلاده فانت لو تدبرت ما يقوله الرجل ، بغير بيروقراطية او ترفض ، لوجدت ـ اولا ـ انه حسن النية ، وانه يقصد خيرا بحق ، ولوجدت ـ ثانيا ـ انه ليس خطرا ولا مستعصيا على النقاش والرد حتى يطرد اكتفاء لشرّه . ولعل في ذلك ما يبرر القول بان خطره الحقيقي بالنسبة للنظام ليس فيما ينادي به من اراء ، او يدعو اليه من حلول ، لان ذلك كله ممكن الرد عليه بشانه واقحامه فيه .. ان ذلك الخطر ـ الذي طرد بسببه ـ كامن في ولعه باجتراء التاريخ .

ولا ادل على صواب هذه النظرة ، فيما نرى ، من مشكلة النمو الاقتصادي التي ركب فيها سولجنتسين متن الشطط بطريقة ما من شك في ان النظام السوفيتي قادر على تحويلها الى مقتل لكل ما ينادي به سولجنتسين .

والمشكلة ان الكاتب هو مدرب تدريبا علميا في الرياضيات والفيزياء لم ينهج نهجا تجريبيا وهو يخوض في قضية كقضية ايقاف النمو الاقتصادي والتقدم التقني ، بل نحا منحى عقائديا ، فابعده الحماس العقائدي عن اي نظر علمي ، ودفعه الى تناول المشكلة تناولا a - priori اي يقوم على مقدمات توصله الى نتائج مرتبة سلفا ، فتورط بذلك ـ على المستوى الادبي والفكري ـ فيما ادانه هو عندما حدثنا عن الفرق بين الفن والكتابة التي ترمي الى الدفاع عن افكار مسبقة ، او الاقناع بعقائد سياسية ، اجتماعية ، فلسفية (او اقتصادية) والبرهنة على صحتها ، اعتسافا ، والترويج لها ، كما تورط ، على المستوى العلمي ـ في الاخذ بافكار معرضة لان تناقش وتدحض باعتبارها مسلمات مفروغ من صحتها ، واقامة نسق فكري باكمله عليها .

فقد وقع سولجنتسين ـ فيما يبدو من كلامه ـ على تقرير نشره، في عام ١٩٧٢ : « نادي روما » (وهو ناد يضم عددا من العلماء ورجال الاقتصاد ، والصناعة ، والمثقفين ، وبعض السياسيين من مختلف انحاء العالم) بعنوان « حدود النمو » . وقد حقق التقرير نجاحا كبيرا في مجال التوزيع ، فبيعت منه عدة مئات من الاف النسخ . ويقرر واضعو التقرير انهم جمعوا بشكل رياضي « كل المعطيات المعروفة » عن عدد سكان العالم ، وامدادات الطعام ، والتلوث ، والمواد الاولية اللازمة للصناعة ، واستخرجوا من تلك المعطيات عدة نماذج للحاسبات الالكترونية تهدف الى بيان الكيفية التي سيتعرض بها كل متغير من تلك المتغيرات للزيادة والانخفاض خلال السنوات المائة القادمة ، وانتهوا من ذلك كله الى ان الاتجاهات الراهنة مفضية ـ بلا مهرب ـ الى انهيار الحضارة قبل حلول سنة ٢١٠٠ ، وان الطريقة الوحيدة لتجنب تلك الكارثة هي فرض قيود بالغة الصرامة على النمو الاقتصادي واطراد التقدم التقني .

وبعد ان نشر نادي روما تقريره بقليل ، قام البنك الدولي بنشر تقييم لتقرير نادي روما (٣٥) كما تتابع ظهور عدد من الدراسات المتعمقة بالدوريات المتخصصة لما تضمنه ذلك التقرير (٣٦) وبايجاز ، يمكننا تلخيص الاعتراضات العلمية التي وجهت الى تقرير نادي روما (وهو المصدر الاول لذعر سولجنتسين) بما يلي :

اولا : ان المعطيات التي غذيت بها الحاسبات الالكترونية قبل تلوث البيئة متمثلا في كل نموذج منها كمتغير واحد . والمشكلة هي : كيف تم قياس ذلك التلوث ، فنحن هنا في مجال حاسبات الكترونية ولسنا في مجال مناظرة بارعة او تفكير نظري . ذلك شيء لم يرد بشانه في تقرير نادي روما اي تحديد . ولقد تساءل بعض من انتقدوا التقرير كيف تسنى اعطاء قيمة رقمية للتلوث مستقبلا طالما لا توجد لذلك المتغير مثل تلك القيمة الرقمية بشكل مسلم به في الحاضر ؟ مثلا : ما اعلى مستوى للتلوث البيئي على مستوى العالم كله في سنة ١٩٧٠ قياسا الى مستوى عام ١٩٠٠ ؟ وفي نفس الوقت يبدو ان حسابات النادي اسقطت من اعتبارها تماما كافة الاجراءات التي تتخذ حاليا في انحاء مختلفة من العالم لمقاومة التلوث وبرامج الابحاث التي كرست لاكتشاف وسائل مقاومته والحد منه (*) .

ثانيا : ان الموارد بدورها ادمجت ، في حسابات النادي ، في متغير واحد غير محدد . ويرى من انتقدوا التقدير انه من المحتمل جدا ان تبدو تنبؤات تقرير روما بتناقص الموارد الطبيعية الى حد الاستنفاد سخيفة في ضوء ما سوف يقوم به العالم بغير شك من تنمية موارده الراهنة والتنقيب عن موارد اخرى . فوق انه ليس من النظر العلمي في شيء ـ كما يقول اولئك النقاد ـ ان نلقي نظرة معجلة على موارد العالم الراهنة ونقول : « آه هذا كله سيستنفد في سنة ٢٠٠٠ او ٢١٠٠ ! » ولو كان وجد ناد كنادي روما في عام ١٩٠٠ ، واجرى حسابات مماثلة بالنسبة للموارد التي كانت معروفة وقتئذ ، لكانت تلك الحسابات ، فيما يحتمل ، قد اشارت الى انهيار الحضارة قبل ان يحل عام ١٩٧٤ . (**)

اما تقرير البنك الدولي فيقول ان الافتراضات التي غذيت بها العقول الالكترونية كانت مفرطة في تشاؤمها ، ولم يتم التثبت من صحتها علميا ، فوق ان استخدام المعطيات كان متسما بالاهمال والعشوائية .

وايا كان الامر ، وسواء كان سولجنتسين قد تورط ـ رغم تدريبه العلمي ودراسته للرياضيات ـ في خطأ الانقياد بسذاجة وراء عملية هواة عشوائية كما يحاول اولئك النقاد تصوير تقرير نادي روما، او كان اولئك النقاد ـ بتسفيههم للتقرير ـ جاهدين في التعمية عن موضوعات تدعو مصالح عليا (للحضارات المتقدمة او العليا كما يدعوها سولجنتسين) الى عدم الخوض فيها علنا (وذلك احتمال مرجح بقوة من وجهة نظرنا) خاصة والامر متعلق باشياء متفجرة كاستنفاد الموارد

(35) Report on the Club of Rome,s « the limits of Growth » , a study by a special task Force of the World Bank , 1972

(36) « Nature » : March 10 , 1972 - August 4, 1972 . September 29,1972,March 16 , 1973«National Review»: November 24, 1972

(*) ولو ان اجراءات الحد من التلوث انجبت للبلدان الصناعية تلوثا من نوع جديد ! فالتحكم في المواد الكربونية الصلبة التي تنفثها مداخن المصانع انتهى الى ارتفاع نسبة الاحماض في المطر المتساقط على الغابات والزراعات بنسبة بلغت ١٠٠٠٪ !

(**) والواقع ان سولجنتسين يناقش هذه القضايا مناقشة دوجماتية . والمشكلة ان العلم اخر ما يحتمل الدوجماتية . فكل النظريات مطروحة للمناقشة والمراجعة . بل ان العلم عملية متصلة من المراجعة لنظرياته . وفي غمار تلك الدوجماتية يقع سولجنتسين في تناقض طريف : فهو مذعور من استنفاد موارد العالم ، وفي الوقت ذاته معارض لغزو الفضاء . مع ان هدفا اساسيا من اهداف غزو الفضاء البحث عن موارد جديدة تعوض ما يستنفد من موارد الارض .

الطبيعية ومترتبات النشاط الصناعي المكثف) ، نقول سواء كان هذا او ذاك ، فالذي يعنينا موقف سولجنتسين اخلاقيا من كل تلك القضايا التي يخوض فيها . فهو لا يبدو مهتما ادنى اهتمام بما يترتب على اي « عامل » من عوامله الخمسة : الانفجار السكاني ، وتناقص انتاج الطعام ، والارض .. الخ الا بالنسبة للشعب الروسي وحده ، وكان ذلك الشعب الروسي يعيش في فراغ . ولقد وصف زخاروف ذلك الموقف من جانب سولجنتسين بانه مثير لاشد الانزعاج والقلق ، ووصمه ميدفيديف بضيق الافق ، ونحن نراه كذلك ، ونرى ـ فوق ذلك ـ انه كاشف ، لانه ان كان قد بات ممكنا للفن ان يتخذ ـ كما في حالة سولجنتسين ـ موقف « وبعدنا الطوفان هذا » فان عصرنا يكون ـ كما وصفه سولجنتسين ـ اقسى العصور بحق ، وافظعها ، واشدها كلبية .

وذلك ما لم يغب عن فطنة سولجنتسين ، فهو يتوقف لحظة ليقول معتذرا : « وانا ـ في الحقيقة ـ ما كنت لاعتبر انه من الاخلاق في شيء ان اوصي باتباع سياسة ترمي الى انقاذنا نحن فحسب ، بينما الصعاب والمشكلات عالمية وشاملة بهذا الشكل ، لو لم يكن شعبنا قد قاسى في القرن العشرين اكثر مما قاسى اي شعب اخر في العالم كله . » (٣٧)

وشعوب « المحيطات الدافئة » التي يدعو سولجنتسين الى تركها لمصيرها ؟ الم تتعذب في هذا القرن العشرين ، والقرون التي سبقته ؟ الا يراها سولجنتسين وهي تقتل ؟

ومع ذلك ، فليطمئن سولجنتسين على شعوب « الحضارات العليا » . فمواردها لن تنضب . ولن تموت جوعا او يتوقف تقدمها . لانها ستواصل مسيرتها الظافرة لتدخل القرن الحادي والعشرين ، وتغزو الفضاء ، على حساب شعوب اسيا وافريقيا واميركا اللاتينية، وبموارد تلك الشعوب ، وربما بجيوش عمال السخرة التي ستحول اليها تلك الشعوب « المجدودة الحظ » من بينها ، التي قد يقرر الداخلون الى القرن الحادي والعشرين الابقاء عليها .. رقيقا لهم .

.. والآن : الحرية .

عندما قامت الضجة الكبرى في صحف الغرب وسائر اجهزة اعلامه حول سولجنتسين ونضاله وتحديه للنظام السوفيتي وطرده من بلاده بدا ذلك كله كما لو كان طعنة في الصميم للنظام السوفيتي الحاكم ، بل وللاتحاد السوفيتي كله . لكن صحف الغرب واجهزة اعلامه ما لبثت ان نشرت رسالة الكاتب الى زعماء الاتحاد السوفيتي جنبا الى جنب مع احاديث صحفية وتليفزيونية وتصريحات متعاقبة تحمس الكاتب فادلى بها . وقد نشر ذلك كله في الغرب ، وسلطت الاضواء عليه ، وعلق المعلقون على ما جاء به من آراء وافكار ، وحلل المحللون ما انطوى عليه من تلميحات وهمهمات وظلال معنى ، بتشف ، وفرح ، وانتصار ، باعتبار ان ذلك كله طعنة الاجهاز على الاتحاد السوفيتي الجريح من طعنات سولجنتسين البطولية المتلاحقة . وقد اثار ذلك ثائرة البعض ، كالموسيقار السوفيتي العظيم ديميتري شوستاكوفيتش الذي ارسل خطابا الى برافدا يهاجم فيه بعنف سولجنتسين (ولا يستطيع احد ان يتهم شوستاكوفيتش الذي لا يعرف المهادنة ، فيما نظن ، بمهادنة النظام وتملقه) ، واثار حرج البعض كالشاعر يفتوشنكو الذي تصدى للدفاع عن سولجنتسين في مبدا الامر ، ثم ما لبث ان غير موقفه ، واعتذر بقصيدة يتغزل فيها بمصنع للجرارات او سيارات النقل لا نعري .

واعتقادنا ان اراء سولجنتسين في جملتها وتفصيلها ـ رغم صدق نيته ، وسلامة الاسس الاخلاقية التي يصر على انه يصدر عنها ليست مخيبة للامال فحسب ، وليست داعية الى كثير من التحفظات فقط ، بل وكاشفة (وقد يرى المرء انها هادمة) لسولجنتسين اكثر مما هي مؤذية للنظام .

ولم ؟ لنسال انفسنا : على اي مفهوم قامت اسطورة سولجنتسين (والرجل قد عولجت صورته حتى اصبح اسطورة بحق ، سواء كان ذلك برغبته او لم يكن) ، وعلى اي اساس انبنى صرحه ؟ على كونه ، وهو الفنان الذي لا يملك الا قلمه ، قد تصدى لنظام من النظم الحاكمة المعاصرة ، بكل ما تحتكم فيه تلك النظم (كلها وليس احدها) من اجهزة واساليب القهر والمحق وامكانيات القضاء قضاء مبرما على من يخالفها الراي ، او يعارضها ، او يصيبه خبل فيقف في وجهها (*) ، وان ذلك الفنان ـ متصديا لذلك النظام ـ جعل من نفسه منافحا عن الحرية : لا حرية الفرد وحسب ، بل وحريات الامم والشعوب .

ولعله ينبغي لنا ان نتوقف هنا لحظة نستجلي فيها بعض ملامح واعراض مرض كلبي معاصر يقول سولجنتسين انه « ظاهرة روسية اخرى نبتت جذورها في التربة الفكرية للقرن التاسع عشر اسماها دستويفسكي : العبودية الفكرية للمفاهيم المتقدمة » (٣٨) . ولقد تكون الظاهرة روسية ، كما يقول ، ونابعة من القرن التاسع عشر ، او لا تكون ، لكنها ـ بكل تاكيد ـ باتت من اعراض مرض وبيل يعاني منه العالم المتقدم كله ، وهو مرض يزداد شدة وخطورة من يوم لاخر بازدياد ضراوة اجهزة الاعلام والاقناع بالعمق في استغلاله سياسيا ، واجتماعيا ، وتجاريا .

والمرض ، ببساطة ، ضرب من الهلوسة الجماعية تنميه وتعمقه وتزيده شدة مصالح معينة في اوقات معينة . واقرب مثل على ذلك من واقعنا ، نحن العرب ، ظاهرة عشق الغرب اليهود وتدلهه في حبهم . اي شيء هو ذلك الهوس ؟ هو ـ ببساطة ـ انك لكي تكون متحضرا وانسانا ومعاصرا ، ونظيفا من العنصرية المذمومة (والعنصرية قد باتت معاداة اي موقف من مواقف اليهود او الاختلاف مع دعوى من دعاواهم ، اما اغتيال السلالات الاخرى واحتقارها والتكتل ضدها فتحضر وتقدم) يجب ان يصيبك شبق كلما رن جرس لفظة يهود (او اي شيء له علاقة بهم من قريب او بعيد) في سمعك ، كذلك الجرس الذي كان يستثير به بافلوف افعال كلابه الشرطية المنعكسة . وكل انواع الهوس والسعار والاضطرابات العاطفية والعقلية يخلو ذلك ـ بطبيعة الحال ـ من كل منطق وعقل . فاللاعنصرية ، والتحضر ، والتقدمية الفكرية ، والنزعة الانسانية ، تتمثل كلها في الاستجابة الشبقية للمثير المتضمن في لفظة يهود . وهل يفعل كاتب كجونتر جراس غير هذا ؟ وعشرات مثله . وحتى سولجنتسين ، عبر عن نفس الموقف بطريقته الريفية الخلو من اللباقة ، عديمة اللفوالدوران، عندما اخذ على زعماء بلاده تسليحهم للعرب ، وشبه ذلك بتسليحهم سابقا لماوتسي تونج بدلا من ان يسلحوا جاره المسالم الوديع تشانج تشاي تشك . ومن هو جار العرب المسالم الوديع ؟

بنفس الطريقة ، باتت لفظة الحرية هي الاخرى ، في التطبيقات والاستخدامات المتقدمة لهذا المرض في سوق الشعوب كما تساق قطعان الماشية ، لفظة مفتاحية او زنادية (من زناد) كما يقول خبراء ابحاث العمق واساليب الاقناع في الاعلان الحديث ، تطلق في الاذهان المستقبلة لها سلسلة متحكما فيها من التداعيات والاستجابات المجردة من العقل والمنطق ، توضع ـ كطاقية الاخفاء في حكاياتنا الخرافية ـ

(*) وكل ما هنالك من اختلاف ان المجتمعات الغربية لا تستخدم في محق الكاتب المنشق الاساليب البوليسية او البيروقراطية ، بل تستخدم وسائل تصل الى التشهير والاغتيال المعنوي .

(٣٧) « رسالة .. » ص ٣٠

(٣٨) « خطبة نوبل » ص ١٩

على رأس اي قضية ، مهما فسدت وقبحت ، فتجعلها بهجة للناظرين، اذ تخفي سوءاتها ، بل تخفيها اصلا ، ولا ندع في الاذهان التي تساق بها كما تساق القطعان الا الصورة المصنوعة التي دربت تلك القطعان على الاستجابة لها كلما اطلق عليها ذلك المنبه او المثير : لفظة الحرية.

وذلك عين ما حدث ابان الضجة الكبرى التي سبقت وصاحبت طرد سولجنتسين من الاتحاد السوفيتي ، سولجنتسين الشهيد ، المناضل ، نصير الحرية ! وكيف لا يكون وهو في رسالته البطولية الى زعماء بلاده الجبابرة يطلب اليهم ، بل يبدو كما لو كان يأمرهم باطلاق الحريات الفردية ، وانهاء وصايتهم على بلدان اوربا الشرقية واعطاءها حريتها ؟ والمتتبع لقصة الغرب مع بلدان المعسكر الاشتراكي في اوربا الشرقية يعرف اهمية ما يعنيه هذا . فما بالك وسولجنتسين، قاتل المردة ، كاسيا دروعه ، شاهرا رمحه ، يطلب بجرة قلم واحدة اخلاء سبيل الافراد من ابناء الشعب السوفيتي ، المعتقلين منهم ، والمهدرة حرياتهم خارج اسوار المعتقلات ، سواء بسواء ، في وقت واحد مع بلدان اوربا الاشتراكية باكملها ؟ هل هناك تكريس لكل ما قالته صحف الغرب واجهزة اعلامه ، ورددته ، وتالهت به ، مدعية القداسة ، ونصرة القيم الانسانية العليا منذ الحرب الباردة حتى الان ، هل هناك تكريس لذلك اعظم من هذه الدعوة على لسان كاتب روسي عالمي كهذا يحمل جائزة نوبل ؟

وقبل ان نذهب الى ابعد من هذا نتوقف لحظة ـ على سبيل الاحتياط ـ فنستعيد كل ما قلناه في جانب الكاتب وما قلناه دفاعا عن حقه في المعارضة والانشقاق وابداء الرأي دون ان يضطهد ، او يكبح جماحه ، او يرتعب ، او يطرد . فنحن ، بغير ادنى شك ، في جانب حرية الكاتب : حريته كفرد وانسان ، وحريته ككاتب . كما اننا ، بغير ادنى شك ، في جانب الحرية ، بكل قلبنا ، وكل فكرنا . لكننا في جانب الحرية كقيمة اخلاقية حقيقية مرتبطة ارتباطا عضويا لا فصام له بالواقع الانساني ، ولسنا في جانب الحرية التي تتحول الى حيلة من حيل الهواة ولاعبي السيرك في حلبة السفسطة والكلبية. وببساطة نحن في جانب الحرية كقضية لا تتجزأ ولا يتلاعب بشظاياها باستخدام معيارين من القيم . ولهذا لا تثير حميتنا للحرية بل تثير غثياننا تلك السيول من الحمم المتدفقة من افواه كتاب الغرب دفاعا عن الحرية والقيم الانسانية العليا وموتا في حبها . لان كلبية المعايير المزدوجة تجعل من ذلك كله سخرية مريضة مشوهة مقيتة . وما من شك في ان اولئك الذين يملأون اشداقهم بلفظة الحرية ويلوكونها دفاعا عن حرية القاتل في قتل ضحيته ويصفون القاتل بالتحضر والبطولة وهو يبيد شعبا باكمله احتلت ارضه ، ثم يملأون اشداقهم بالفاظ القيم الانسانية العليا ويلوكونها ادانة لحرية الضحية في الدفاع عن نفسها ضد قاتلها، لهم كاذبون ومزورون . وسولجنتسين عدو الكذب المستميت دفاعا عن الصدق والحق والحرية ؟ لقد راينا راي العين وسمعنا باذاننا ادانته « للارهابيين » و « مقاتلي حرب العصابات » . فلننظر الان في حكاية دفاعه عن الحرية ، ولنسأل سولجنتسين : هل دعا حقا وصدقا الى اطلاق الحريات ، ودعا ـ حبا في حرية اوربا الشرقية الى انهاء الوصاية على اوربا الشرقية ؟ أم تراه يدعو الى ذلك لمجرد تخليص الشعب الروسي من « عبء تلك الوصاية » وتخفيف حمولة مركبه حتى لا يغرق في العاصفة التي يراها مقبلة ؟ ولسنا بحاجة الى جواب غير ما كتبه سولجنتسين بقلمه : « لقد ظللنا منشغلين ، طيلة نصف قرن، بالثورة العالمية ، مهتمين بمد دائرة نفوذنا وتوسيعها لتشمل اوربا الشرقية وبلدانا اخرى في قارات اخرى ، آخذين في تنفيذ برامج اصلاح زراعي تقوم على اسس ايديولوجية ، سادرين في القضاء على الطبقات المالكة للارض ، ومحو الديانة والاخلاقيات المسيحية ، منغمسين في ذلك الاستعراض الحاوي الذي يدعى بسباق الفضاء (!)

(٣٩) .. وليس امامنا الان من سبيل الا ان نتحول عن الاهتمام بالقارات البعيدة ، بل وعن اوربا وجنوب بلادنا ذاته . وكلما عجلنا بذلك كان خيرا لنا واجدى (٤٠) .. وبطبيعة الحال سيستتبع تحول كهذا ، ان اجلا وان عاجلا سحب مظلة الحماية والاشراف التي نبسطها فوق اوربا الشرقية » . (٤١)

ليست الحكاية اذن حكاية منافحة عن حرية اوربا الشرقية ، او حرية غيرها . فكل ما في الامر ان الرجل يريد لبلاده ان تدير ظهرها للجميع ، وتوصد ابوابها دون الجميع ، اوربا الشرقية كاوربا الغربية، « كانصاف الكرة الاخرى ، وبلدان المحيطات الدافئة » . فالكارثة آتية وليحاول ان ينجو بنفسه من استطاع .

وبصرف النظر عن ان سولجنتسين يبدو كما لو كان مصرا على ان يظل ، في كل مواقفه ، لاحقا باذيال الغرب ، متخلفا عنه بسنين، واحيانا بعقود كاملة : فهو ، في اواخر سنة ١٩٧٣ ، يدعو بلاده الى الاخذ بسياسة عزلة اشبه بتلك التي خرجت منها ولم تعد اليها الولايات المتحدة الاميركية قبل اكثر من ثلث قرن من الزمان ، بصرف النظر عن هذا ، فان الموقف يدعو ، حقيقة ، الى التساؤل والحيرة. لانه ليس موقف اي كان . وليس الامر متعلقا هنا ببورجوازي مذعور صغير ضيق الافق ومتعصب يقال له ان المؤن ستشح في الشارع الصغير الذي جعله عالمه ، فيهرول ليشتري له ولعياله كل ما استطاع شراءه ، ويسرع ليقفل على نفسه واسرته ابواب داره ـ بل الامر متعلق بفنان كبير ، وكاتب حاصل على جائزة نوبل ، ومناضل لا يشق له غبار ، ومناظر عظيم ، ومقاتل عن الحرية شديد المراس : حرية الافراد ، وحريات الشعوب .. او هذا هو ما يقال ؟ فما الحكاية اذن؟

لندع سولجنتسين نفسه يفصح ، بغير تعليق :

« .. حتى سلالة المثقفين الروس التي وجهت كل قواها ، لاكثر من قرن ، الى مقاومة الطغيان والحكم المطلق : ما الذي حققته لنفسها، او لعامة الشعب ، مقابل خسائرها الجسيمة ؟ عكس ما ابتغته تماما، بطبيعة الحال . افلا ينبغي ان نسلم اذن بان تلك الدرب (درب مقاومة الحلم المطلق) كانت دربا زائفة ، او سابقة لاوانها ؟ اولا ينبغي ان نقر بانه من المقدر لروسيا ، في المستقبل المرئي ، فيما يحتمل ، شئنا ام لم نشأ ، اردنا او لم نرد ، ان تحكم حكما مطلقا ؟ اليس من المحتمل ان ذلك هو ما يؤهلها له ما وصلت اليه من نضج حتى الان ؟

« وكل شيء يتوقف على نوع الحكم المطلق (!) فليس الحكم المطلق ذاته هو الذي لا يطاق ، بل الاكاذيب الايديولوجية (الماركسية) التي نرغم على ابتلاعها كل يوم . ليست المشكلة في الحكم المطلق، بل في التعسف وانعدام الشرعية المتمثل في هيمنة فرد واحد في كل مقاطعة ، وكل اقليم ، وكل مجال ، غالبا ما يكون فظا جاهلا تنفرد ارادته بالحق في تقرير ما يكون وما لا يكون في كل الاشياء .. فليكن حكما مطلقا اذن لكنه لا يقوم على كراهية طبقية لا نهاية لها ، بل على حب جارك ، وشعبك كله .. » (٤٢)

لندن

---

(٣٩) « رسالة .. » ص ٢٩

(٤٠) « رسالة » ص٣١/٣٢

(٤١) « رسالة .. » ص ٣٢

(٤٢) « رسالة .. » ص٥٣/٥٥